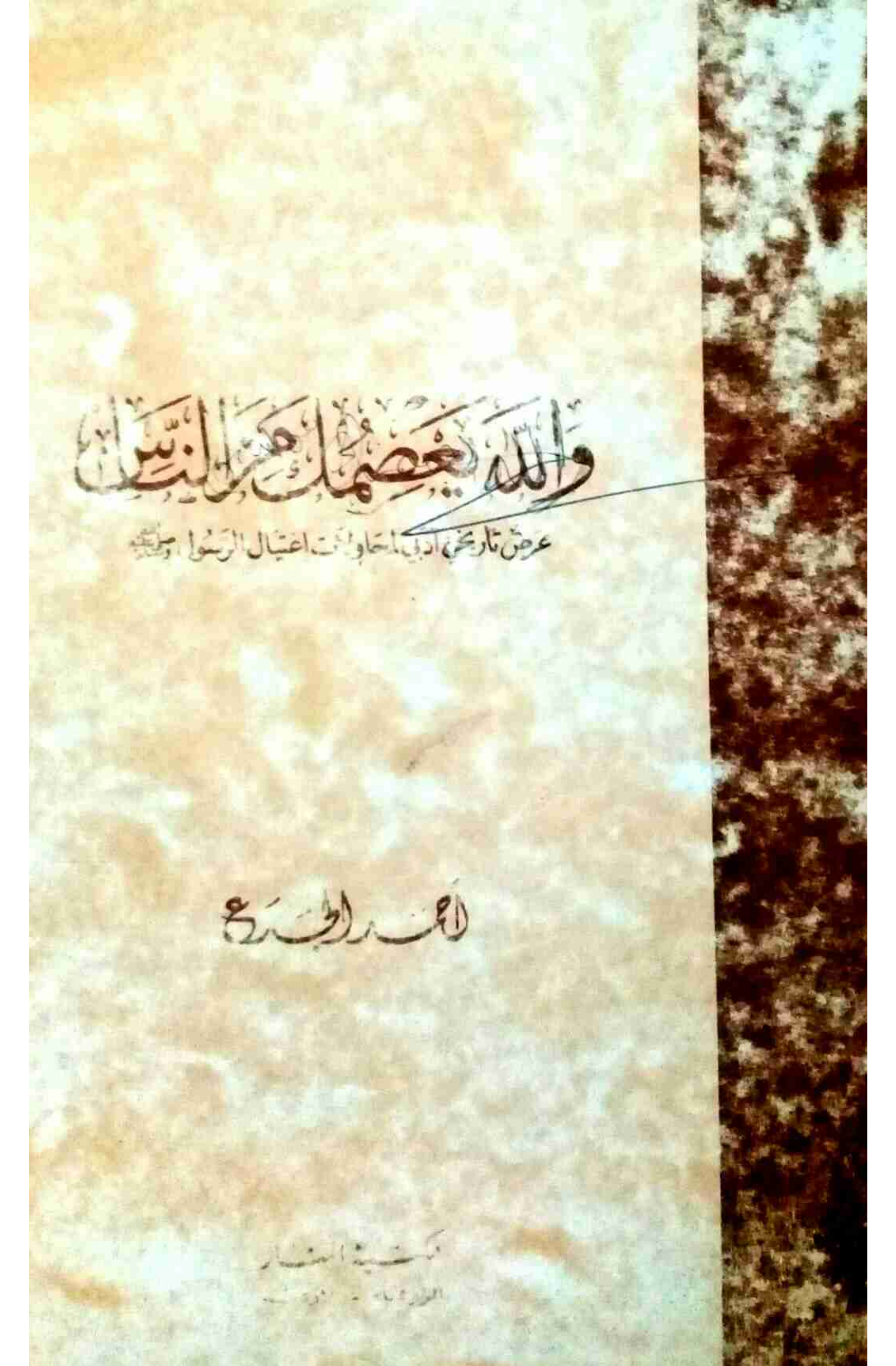

والله يعصمك من الناس
عرض تاريخي أدبي لمحاولات اغتيال الرسول ﷺ
أحمد الجدع
مكتبة المنار

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

عَرْضٌ تَارِيخِيٌّ أَدَبِيٌّ لِمُحَاوَلَاتِ اغْتِيَالِ الرَّسُولِ ﷺ

الطبعة الاولى - بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م
الطبعة الثانية - بيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م
الطبعة الثالثة - الزرقاء ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

أحمد الجدع

والله يعصمك من الناس

عرض تاريخي أدبي لمحاولات اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ

الآية ٦٧ من سورة المائدة

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد

تعرّض رسول الله - ﷺ - إلى ثلاث عشرة محاولة استهدفت حياته الكريمة خلال عشر سنوات ، وذلك بسبب جهاده المتواصل لأعداء الله ، ونتيجة للضربات القاصمة التي أنزلها بأركان الشرك وقواعد الوثنية واليهودية .

وإذا كنا قد اخترنا الفترة المدنية وحصرنا محاولات الاغتيال فيها ، فإن هذا لا يعني أن الرسول - ﷺ - لم يتعرض للأذى والمتاعب في الفترة المكية ، بل لأن ما تعرض له في الفترة المدنية يختلف عنه في الفترة المكية ، فقد كان - عليه السلام - في الفترة المكية في موقف ضعف أمام أعدائه فكان إيذاؤه ينحصر بالكلام أو بأفعال لا تصل إلى القتل إذا استثنينا محاولة قتله ليلة الهجرة التي اعتبرناها بداية للمرحلة المدنية ، أما في المرحلة المدنية من حياة الرسول فقد أصبح - عليه السلام - في منعة ، وله جيش ودولة ، وأصبح الاعتداء عليه غير ممكن بالأسلوب الذي كان متبعاً في المرحلة المكية ، فأصبح الأسلوب هنا منحصراً بمحاولات القتل غيلة .

.. * ..

وإذا أحببنا أن نحلل هذه المحاولات التي جرت لاغتيال الرسول تحليلاً سريعاً ، فإننا نجد أن القائمين بها أربع فئات .

الفئة الأولى : الوثنيون ، ويمثلهم ما قامت به قريش وبعض القبائل العربية .

الفئة الثانية : أصحاب الديانات السابقة ، ويمثلهم اليهود إذ أنهم هم الذين كان لهم وجود حقيقي حول المدينة ، وقد قاموا بمحاولتين ، وكان حضورهم ملموساً في محاولة ثالثة .

الفئة الثالثة : المنافقون ، وهي الفئة التي لا تستطيع أن تعيش إلا تابعة لغيرها منفذة لمآرب سواها في سبيل نفع عاجل يلوّح لها به ، ونجد ذلك واضحاً في محاولتهم في غزوة تبوك .

الفئة الرابعة : أفراد يسعون الى أمجاد شخصية ، وهم مستعدون في سبيل ذلك أن يحطموا أمة بأسرها . وهذه الفئات الأربع هي أعداء الاسلام في كل وقت .

★ ★ ★

ومحاولات اغتيال الرسول – ﷺ – لم تتوقف رغم انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وهي اليوم أشد منها بالأمس وأعتى ، وهي اليوم أشدّ قسوة وأكثر شراسة منها قبل أربعة عشر قرناً ؛ ذلك لأن الجاهلية التي يعيشها عالم اليوم أعتى من الجاهلية التي

قاومت الدعوة الإسلامية في عصر الرسول ، فجاهليـــة اليوم تملك من الإمكانيات المادية الهائلة ما يساعدهـــا على إسدال ستور من الظلام على كل دعوة للخير وإقامة سدود من القهر أمام كل دعوة للصلاح، وعندها من وسائل الإعلام ما تستطيع به أن تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، ولا يخفى مـا لوجود الرسول – عليه السلام – والوحي المنزل لساعته من تأثير في صالح جبهـة الخير والصلاح ، وإذا كان المسلمون اليوم يملكون القرآن الكريم والسنة المطهرة كأعظم وسائـــل القوة إلا أن وجود الرسول والوحي المنزل له قيمتـــه المعنوية الكبرى في نصرة الحق على الجاهلية .

وتتمثل محاولات اغتيال الرسول في عصرنا بالمحاولات التي تجري للاعتداء على سنته الشريفة ، وقد تنوعت هذه المحاولات وكثرت ، وكلها يهدف إلى إقصاء هذه السنة عن حيـــاة المسلمين .

وتتمثل هذه المحاولات بالحرب الشاملة التي يشنهـا الأعداء على الإسلام كمنهج حيـاة ، وكدين لا يصلح المسلمون إلا به ولا نجاة للعالم إلا باتباعه .

وهي تتمثل أيضاً في الهجمات الشرسة على لغة القرآن التي اختارها الله لغة لهذا الدين ، وارتضاهـــا لغة خالدة لكل من اختار منهج الحق منهجا .

إن هذه الرموز التي أوردناها كمثال على محاولة اغتيال ما جاء به رسولنا الكريم من رب العالمين ، لهي امتداد لتلك المحاولات التي استهدفت شخصه - عليه السلام - قبل أربعة عشر قرناً، لأن المحاولات التي بذلت لاغتياله - ﷺ - إنما كان المقصود بها القضاء على هذا الدين ، فلو لم يكن محمد بن عبد الله رسولاً لهذا الدين لما تعرض له أحد بأذى .

★ ★ ★

وبعد ،

إن ديننا لا يصلح له إلا العاملون الذين يجمعون بين الصلاح والسلاح .

وإن ديننا لا يصلح له المترفون ، لأنه دين الشرف ، والترف والشرف لا يجتمعان .

إننا إذ نقدم هذه الصفحات من جهاد الرسول فإننا ندعو بها إلى اتباع منهجه - ﷺ - ، ومنهجه منهج الحق الذي تدعمه القوة ، منهج العدل المؤيد بالجهاد في سبيل الله .

إن موجات الترف التي بدأت تسود الأجزاء الثرية من بلاد الإسلام لا تتفق ومنهج الرسول، وأول مضارها ومفاسدها ما نراه من نكوص المترفين عن العمل والجد والكفاح ، وإقبالهم على مباذل الحياة وسفاسفها .

إن ديننا دين الرجولة ، وهو صانع الرجال في كل عصر .

إن إقبال عرب الجاهلية على الإسلام أخرج من بينهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وخالدا ... ، وإن عودتهم إليه في العصور التالية كان سبباً في خروج أمثال صلاح الدين والمظفر قطز ومحمد الفاتح ... ، وهو هو الإسلام الذي سيخرج لنا رجالاً أمثالهم إذا عدنا إليه وتمسكنا به .

أسأل الله أن يقدر لأمتنا عوداً حميداً سريعاً لهديه الكريم ومنهاجه القويم ، إنه على كل شيء قدير ، والحمد لله أولاً وآخرا.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ

الآية ٣٠ من سورة الأنفال

ليلة الهجرة

كانت مكة تموج بأخبار محمد وأصحاب محمد ، فلا تجد بيتاً من بيوتها ولا نادياً من نواديها ولا مجلساً من مجالس سادتها إلّا ويتحدث الناس فيه عن هذا الدين الذي أدخله عليهم محمد ، وعن هذا الأثر العميق الذي تركته الدعوة إلى الإسلام في مجتمعهم .

كان السامرون في فناء الكعبة يتجاذبون أطراف الحديث عن الحركة الجديدة التي دبت في صفوف المسلمين ، فقد ترامى إلى أسماعهم أن محمداً أمر أصحابه بالهجرة إلى يثرب بعد أن آمن أهلها وأعطوا عهداً على أنفسهم أن يفدوا الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، ودار النقاش هادئاً متعقلاً حول أفضل الوسائل لمنع المسلمين من الهجرة ، ثم ما لبث النقاش أن اشتدّ واحتدّ حتى كاد زمامه أن يفلت وعقاله أن يحل ، فسارع السادة إلى السيطرة عليه وتوجيهه الوجهة التي يريدون ، فقال قائلهم : إن هذا الأمر الجلل لا يحسمه نقاش عام يُدار على مرأى من الناس

ومسمع ، فإنه إن جرى كذلك أفسد السفهاء على العقلاء رأيهم ، وقادوهم الى مجاهل الرأي وخطل التفكير ، بالإضافة إلى ما يمكن أن يتسرب إلى محمد وصحبه من معلومات عن اتفاقنا وقراراتنا فيعرفونها ، أو اختلافنا وتشاحننا فيفرحون بذلك ويسرون ، لذا فإني أرى أن يدع الناس هذا الأمر إلى الملأ من قومهم ، يجتمعون له في دار الندوة ويديرون فيه الرأي ويتبادلون فيه المشورة ، ويقررون فيه الأمر الصواب .

وانفض السامرون ، وذهب كل في طريقه ، وتنادى السادة إلى اجتماع يعقدونه في دار الندوة لمعالجة أمر الهجرة التي بدأها أصحاب محمد .

* * *

توافد على دار الندوة الملأ من قريش :

أبو سفيان صخر بن حرب .

أبو جهل عمرو بن هشام .

عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

أمية بن خلف الجمحي .

جبير بن مطعم بن عدي .

أبو البختري بن هشام .

النضر بن الحارث .

حكيم بن حزام .

زمعة بن الأسود

نبيه ومنبه ابنا الحجاج .

وغيرهم من سادة قريش ، وآخرون ممن وازرهم من القبائل الأخرى ..

وعلت أصوات المتحاورين، وتباينت آراؤهم ، وكاد بعضهم أن يمسك بخناق بعض ، ولم يتداركهم إلا صوت الشيطـــان بصورة شيخ نجديّ يدعوهم للسكوت والإنصات ليستمعوا له..

قال النّجدي : يا أيها الملأ ، اسمحوا لي أن أدعوكم لمناقشة هذا الأمر الخطير بهدوء وتعقل ، فأنتم سادة قريش ، وأفاضل العرب ، وسدنة البيت ، وقادة الحجيج ، إليكم تتوجه أنظار العرب كافة ، وبكم يقتدي الناس ، فإن اتفقتم على شيء ، فما أظن أحداً في الجزيرة يخالفكم ، وإن فشلتم في الإجماع على رأي ، فما أظن أحداً من العرب يدين لكم بالولاء ويأخذ لكم برأي بعد اليوم ، إن مكانتكم بين العرب ، وسيادتكم على البيت ، وقيادتكم للحجيج متوقفة على ما تتخذونه من رأي حازم بشأن محمـــد ، فحكموا عقولكم ، وزنوا أفكاركم ، واصدروا عن رأي واحد حاسم قاطع تبقون به على أنفسكم وتحفظون به مكانتكم ...

قال واحد من الحاضرين: لقد بالغتم في أمر محمد وأصحابه، وما أراهم إلا عصابة من الفتيان التفوا حول رجـل فتنتهم بلاغته، واستهوتهم كهانته، وليس وراءهم خطر كبير نحاذره، فأنا أرى أن ندعهم وشأنهم، وبخاصة بعـد أن أخذوا في مغادرة بلدنا، فنحن بذلـك نُكفى شرهم، ولا أرى مبرراً للخوف منهم، ولا أجد ضرورة للاجتماع من أجلهم.

قال آخر: صدقت أيها الرجل، ولولا ضعفهم وخوفهم ما فروا من جوارنا ولا هربوا من بلدتنا.

قال النجدي: أخطأتم الرأي، فلم يفر أولئـك النفـر من خوف، ولم يغادروا بلدتكم من ضعف، ألم تروا وقوفهم في وجهكم بجرأة وثبات وهم العبيد الأذلاء والفتية الضعفـاء، وأنتم السادة الحكماء والقادة النجباء، إنهم أيهـا السادة لا يتركون مكة عن ضعف وخوف، إنما يتركونهـا ليعودوا إليها بعد أن يعدوا لكم الجيوش ويؤلبوا عليكم الناس.

ردّ أحد الحاضرين قائلاً: أيها الشيخ إنك تهرف بمـا لا تعرف، وتحكم بغير علم، من أين لهؤلاء القوة وهم أضعفنـا وأذلنا، ومن أين لهـم أن يجيّشوا الجيوش وهم أشد الناس فقراً وأكثرهم حاجة، إني أرى أنك تبالغ في أمرهـم كأن لك ثأراً عندهم تريد أن تدركه أو مأرباً تريد أن تبلغه.

قال النجدي : يا بن أخي ؛ لست إلا مشفقاً عليكم ، ناصحاً لكم ، وإن كان لأحد عند هؤلاء من ثأر فهو لكم أنتم ، فقد سفّه هؤلاء آراءكم ، وعابوا آباءكم وازدروا آلهتكم . . وهم أقوى منكم بعقيدتهم وبإيمانهم بالذي جاء به محمد ، ألم تر أن واحدهم إذا دخل في دين محمد لا يعود إلى دينكم أبداً حتى ولو عذبتموه عذاباً يفضي به إلى الموت ؟ لقد جربتم ذلك فما خرجتم بنتيجة ترضيكم ، وما سمعت أن أحدهم أجابكم إلى ما تحبون ... ثم إن هؤلاء قد وجدوا ناصراً لهم في أهل يثرب ، وإن أشد ما أخشاه وأعظم ما أحذره أن يجتمع هؤلاء القوم في يثرب مع الأوس والخزرج ثم يدعون غيرهم من قبائل العرب إلى ما يؤمنون به ، فيستجيب لهم آخرون ، فيخرجون إليكم وقد أصبحوا قوة لا تغلب ، فيدخلون عليكم مكة عنوة ... ويا صباح قريش إن تم لهم ذلك ! ، ويا أسفى على آلهتكم إن دخلوا عليكم قريتكم ! ، كيف يحلو لكم العيش بدون اللات والعزى ؟! وكيف تطيب لكم الحياة إذا حطم محمد هبلا ... أيها القوم ؛ لقد سمعت محمداً يتلو آيات فيها حض على حربكم ، فإياكم ثم إياكم أن يعزب عنكم الرأي السديد والقرار الحكيم ...

وفعلت كلمات النجدي فعلها في إثارة المجتمعين ، فقام رجل وقال : إن النجدي على صواب في كل ما قال ولكن الأمر قد فاتكم ، فإن أصحاب محمد قد هاجروا إلى يثرب ، ولم يبق

ههنا إلا من حبسناهم في الحديد من رجالهم ومن لم يستطع الهجرة من نسائهم ... فهل لتدارك هذا الأمر من سبيل ؟

قال النجدي : نعم ، نعم ، لم يفت الأمر بعد ، ولا زالت الفرصة أمامكم كبيرة ، فإن أصحاب محمد إذا اجتمعوا في يثرب لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً بدون محمد ، ومحمد لا يزال بين أظهركم ، فلا بد لكم أن تجمعوا فيه رأياً قبل أن يهاجر وينضم إلى أصحابه ، فإنه إن وصل يثرب فعل بكم الأفاعيل .

قال الجمع بصوت واحد : هذا هو الرأي ... هذا هو الرأي ، ماذا نفعل بمحمد قبل أن يهاجر ؟

والتفت الجميع إلى ذوي الرأي منهم كأنهم يحثونهم على إبداء الرأي واتخاذ القرار ...

وخيم صمت قلق على دار الندوة ، وساد جو من الترقب المنفعل على جمهور الحاضرين ، ودارت العيون في الأحداق تنتقل من سيد إلى سيد ومن زعيم إلى آخر تستطلع الأفكار التي تدور حذرة حادّة في رؤوس الرجال .

وفي هذا الجو المشحون نهض أبو البختري بن هشام بوقاره المعهود وألقى برأيه على الحاضرين : أيها السادة إني أرى القرار الأمثل في هذا الأمر أن نحبس محمداً في الحديد ونغلق عليه

باباً ، ونتربص به مـــا أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ؛ زهير والنابغة ..

قال جماعة من الحضور : أحسنت يا أبا البختري ، لا عدمنا رأيك ، ولا حُرمنا حكمتك .

قال النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي .

قالوا : لماذا أيها الشيخ ؟ ، إن هذا الرأي لصائب ، وإن ثقتنا بحكمة أبي البختري لكبيرة .

قال النجدي : والله لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابـــه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ... لا والله ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره .

قال أبو الأسود بن ربيعة : إذا لم تأخذوا برأي أبي البختري ، فلا شك أنكم ستأخذون بما أرى .

قالوا : وماذا ترى يا أبا الأسود ؟

قال : أرى أن نخرجه من بين أظهرنا وننفيــه في البلاد ، فإذا أُخرج عنا فوالله لا نبـــالي أين ذهب ولا حيث وقع ، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأعدنا ألفتنا كما كانت .

قال النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ،

والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حيّ من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ... دبروا فيه رأياً غير هذا .

وقف أبو جهل بزهو وصلف وقال : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا بلسان واحد : ما هو يا أبا الحكم ؟!

قال عدو الله : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه .

سرت بين القوم همسات الإعجاب ، والتفت بعضهم إلى بعض كأنهم يعجبون من فطنة أبي الحكم ودهائه ، وأخذت الحماسة أحد الحاضرين فأخذ يردد : نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً ... جلداً ... نسيباً ... وسيطاً فينا ... ، ثم مدّ يده إلى مقبض سيفه وقال: ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ... ، ثم أغمض عينيه كأنما يتمثل المشهد حياً وأشار بيده بانفعال يخالطه سرور وقال : ثم يعمدون إليه فيضربونه بهذه السيوف الصارمة ضربة رجل واحد ... نعم ضربة رجل واحد ... ،

ثم أشار بيديه كأنه ينهي أمـراً طال انشغاله به ، وقــال : فنستريح منه ... ، حفظتك اللات والعزى يا أبا الحكم ، ولا زلت لها حامياً وعنها ذائدا .

وتجاوب المجلس بأصوات الإعجاب والموافقة ، وشاع بين الحاضرين جوٌ من الارتياح كأن القوم أنجزوا مهمتهم وفرغوا منها ...

وفي غمرة هذا الارتياح ارتفع صوت يقول : وهل جئتنا يا أبا الحكم إلا بالويل والثبور وهلاك قريش ؟ هل تظن أن بني عبد مناف يسكتون عنا ويتركوننا نسير في مكة آمنين بعد أن نقتل محمداً ؟

ضحك عدو الله وقال : أيها الرجل ، لقد أحكمت خطتي ، ولن يصيبنا من قتله أدنى مكروه ... إننا إذا قتلناه كما رسمت تفرق دمه في القبائل ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، عندئذ نعرض عليهم العقل ، فلا يجدون مندوحة عن الرضا بما نعرض ، وعندها نعقله لهم .

والتفت الحاضرون إلى النجدي يستطلعون رأيه فيما قاله أبو الحكم ، فرأوا علامات البشر والسرور تملأ نفسه وتبدو جلية على قسمات وجهه .

ونظر النجدي إلى الملأ من قريش ، ثم أطلق قهقهة هزت

دار الندوة ، وقـال وهو يتجه إلى باب الخروج : إن القول ما قاله أبو الحكم ... إن القول ما قاله الرجل ... هذا الرأي الذي لا أرى غيره .

* * *

وسرعان مـا اجتمع قادة قريش ، واستعرضوا شبابهم ، واختاروا من بينهم من عرفوا بالشجاعة والجرأة والإقـدام ، ومن هم في قبائلهم في الذروة حسباً ونسباً...

وتداول القوم في تفاصيل الخطة ؛ فقال أحدهم : أرى أن نرسل من بينـنـا نفراً يبحثون عن محمد فيقتلونـه حيث يجدونه .

قال عدو الله أبو جهل : لا ، لا ، إن هـذا الرأي يفسد علينا أمرنا ولا يحقق ما اتفقنا عليه من اشتراك جميع القبائل في دمه ، ثم إننا لا نأمن أن يكون معه من يدفع عنـه ، فإذا فشلنا في قتله حينئذ تنبه بنو عبد مناف لما انتويناه ، وقاموا دونه يحرسونه ، ولن نفلح بعدها أبداً .

قال آخر : ندعه حتى يدخل بيته ، فإذا دخله اقتحمنـاه عليه أو تسورنا جداره ، ثم أعملنا فيه سيوفنا حتى نقتله .

قال أحد الحاضرين: وكيف نقتحم عليه بيته وفيه النساء والحرم ، إنها إذا سبة الدهر وعار الأبد ، إننا لا نرضى أن

يتحدث الناس أننا اقتحمنا عليه بيته كالصعاليك أو تسورناه كاللصوص ، ولكنني أرى أن ندعه يدخل بيته دون أن ندعره ، ثم نحيط بالبيت إحاطة السوار بالمعصم ، وننتظر حتى الصباح ، فإذا خرج انقضضنا عليه جميعاً فضربناه الضربة التي تخلصنا منه وتريحنا من دعوته ...

ولاقى هذا الرأيَ موافقة الجميع ، وانتظروا حتى جاءهم من بلّغهم بأن محمداً قد دخل بيته ، وأنه راقبه حتى رآه يتسجى ببرده وينام في فراشه ... ، فانطلق المتآمرون ، وأحاطوا ببيت رسول الله ينتظرون أن يخرج عليهم ، وقد طوى كل منهم بين جنبيه قلباً حاقداً غاضباً ، وحمل في يده سيفاً صارماً قاطعاً .

* * *

كان بيت رسول الله محاطاً بسور محكم من شباب قريش ، عليه من كل قبيلة قرشية عينان ترقبان وسيفاً صارماً مسلطاً في انتظار لحظة الخروج .

وفي البيت كان رسول الله يعد العدة للهجرة ، الهجرة التي بابتدائها يبتدىء الشروق ، الشروق الذي ستنعم بسناه قريش والجزيرة العربية ، وسيمتد نوره حتى يعم العالمين .

وفي بيت الرسول كانت أمانات قريش مكدسة في رعايته صلوات الله عليه .

لقد عرفت قريش في محمد بن عبد الله الأمانة المطلقة ، وآمنت بأن شيئاً لا يمكن أن يزحزح هذه الأمانة ولو كان ذلك الشيء هو الخلاف المبدئي والعداء العقائدي ، وأن هذه الأمانة راسخة الجذور ، ثابتة الأركان لا يتخلى عنها صاحبها حتى لو تآمر عليه الناس وحاولوا قتله والتخلص منه .

إن قريشاً التي ائتمنت رسول الله على أموالها لم تفكر في سحبها حتى وهي تعقد المؤامرة ثم تنقلها إلى حيز التنفيذ ، لأنها تعلم أن هذه الأمانة في مكانها وعند أهلها .

ولما كان الرسول الأمين قد قرر الهجرة من مكة ، فقد رأى أن يرد الأمانات إلى أصحابها ، وأوكل هذه المهمة لابن عمه علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – .

ولم تكن رد الأمانات هي المهمة الوحيدة التي أُسندت لعلي – رضي الله عنه – فهناك مهمة أخرى تدخل في صميم الخطة التي وضعها رسول الله – ﷺ – للتمويه على المتآمرين الذين أحاطوا بالبيت وانتظروا يتربصون به – ﷺ – .

إن على عليّ أن ينام مكان رسول الله وأن يتسجّى ببرده حتى يبدو لمن يراقب البيت أن رسول الله لا زال نائماً لم يغادر مكانه بينما يكون – عليه السلام – قد خرج إلى مقصده ، وانطلق في طريق هجرته ...

* * *

عندما وقف رسول الله – ﷺ – في باب بيته يريد الخروج ، وعين الله تكلؤه وعنايته ترعاه وتحفظه ، سمع أبا جهل يخاطب المؤتمرين به ويقول بتهكم وسخرية : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها !

وضحك عدو الله ، وتجاوبت ضحكات مكتومة مع ضحكته ، ثم أشار بيده إلى فمه أن اسكتوا ...

وتقدم رسول الله – ﷺ – ، وتناول حفنة من تراب ، وقال : أنا أقول ذلك .. أنت أحدهم ثم شرع رسول الله في تلاوة سورة « يس » : « يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » حتى وصل إلى قوله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »

كان رسول الله يتلو هذه الآيات الكريمة وهو يمر على أولئك المتآمرين ، وقد أغشاهم الله وضرب على آذانهم فاستولى عليهم النعاس ، ولم يدع أحداً منهم إلا ووضع على رأسه تراباً مما كان في يده ؛ ثم انطلق ليبدأ مرحلة جديدة في حياة الدعوة إلى الإسلام ...



تابع أعداء الله محاصرة بيت الرسول، ولم يشعروا بما حدث لهم، ولكن رجلاً من قريش لم يكن معهم مرّ بهم وحيّاهم، ثم سألهم: ما تنتظرون ههنا؟

قالوا: ألا تعلم ما ننتظر؟! إنك لتعلم أننا ننتظر محمداً.

قال وهو يهز رأسه: خيبكم الله... قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انطلق لحاجته!

قالوا: لا شك أنه قد شُبه لك، إننا نحاصر البيت منذ دخله محمد، ولم نغادر أمكنتنا حتى يتمكن محمد أو غيره من الخروج دون علمنا.

قال: أفلا ترون ما بكم؟ تحسّسُوا رؤوسكم، وستدركون مصداق ما أقول.

وبحركة لا شعورية وضع كل رجل منهم يده على رأسه، ثم شغلهم عن الرجل ما وجدوه من تراب على رؤوسهم، ولما فرغوا من إزالته التفتوا إلى الرجل وقد اهتزت ثقتهم بأنفسهم، ولكن أحدهم أشار إلى حيث اعتاد الرسول أن يرقد وقال للرجل: ها هو ذا محمد في مكانه لم يحرك ساكناً منذ أخذنا أمكنتنا ههنا حول بيته.

وعادت الثقة إلى الجميع بعد أن رأوا شخصاً ملتفاً ببردة رسول الله ونائماً في فراشه، ولم يشكوا بأنه محمد...

والتفت أحدهم إلى الرجل وقال : ألم نقل لك إنه شبه لك؟ ألا ترى أن محمداً لا زال في فراشه ؟

قال آخر وقد أخذ يشك بالرجل: لا أظن الرجل إلا صابئاً تابع محمداً ثم جاء يحاول إنقاذه .

قال آخر : لولا ما نطمع به من قتل محمد لقتلناك الساعة ، ولكنا نتركك لأننا نعلم أننا نقتلك ونقتل الصباة من أمثالك عندما نقتل محمداً . . .

قال الرجل : لقد نصحت لكم، وما قلت لكم إلا الصواب، ولكنكم قوم أعماكم الحقد عن إدراك الكثير ... وسوف يفوتكم ما تريدون إذ لم تصدقوا ما أقول .

قالوا : كيف نصدقك ونحن نرى محمداً أمامنا ؟ امض لسبيلك حتى لا يصل إليك منا ما تكره !

ولم يبرح القوم أمكنتهم حتى أطل الفجر ، وقام علي – رضي الله عنه – من فراش رسول الله ، وطلع عليهم وهم وقوف بالباب ...

قال علي : ما بكم ؟

قالوا : نريد محمدا .

قال : لقد خرج رسول الله وأنتم تنظرون ، فما لكم لم تحدثوه ؟

والتفت القوم إلى أنفسهم ، وأدركوا أن خطتهم قد فشلت .

قال قائل منهم : قد والله صدقكم من قال لكم إن محمداً قد خرج عليكم واستهان بكم ووضع على رؤوسكم التراب ، ولو أنكم أطعتموه حينئذ لأدركتم محمداً قبل أن يفوتكم ، ولكن قد مضى على خروجه زمن ، وما أظنكم بمدركيه .

قال أبو جهل : اسكت أيها الرجل ، مالي أراك تخذل الناس ، كفانا ما أضعنا من وقت ، عليكم بالمحاولة وإياكم أن تيأسوا من إدراك طلبتكم ، هيا انطلقوا ، وابحثوا عنه في أزقة مكة وفي شعاب جبالها ... ، انتشروا في كل مكان ... لقد جعلنا لمن يأتي به مائة ناقة ... نعم مائة ناقة .

ثم جلس على صخرة بجانب الطريق وقال وهو يحاول جاهداً أن يلتقط أنفاسه المتعبة . أيها القوم : أدركوا محمداً ... أدركوه ... أدركوه .



قال رسول الله – ﷺ – : كيف بك يا سراقــــة إذا تسوّرت بسواري كسرى ؟

قال سراقة ، وقد أخذته الدهشة : كسرى بن هرمز ؟

قال رسول الله – عليه السلام – : نعم .

المحاولة الثانية

في طريق الهجرة ...

محاولة سراقة بن مالك المدلجي

جُنَّ جنون قريش حين نجى الله رسوله من مؤامرتها المحكمة ، ونفرت بفرسانها تذرع الأرض بحثاً عنه ، وأعلنت لجميع الأعراب الذين يسكنون على طريق يثرب أنَّ من قتل محمداً أو أسره فله مائة ناقة ...

وتجاوبت أرجاء الصحراء بهذا الإعلان، وسرعان ما وصل جميع الأخبية المنتشرة على امتداد الطريق إلى يثرب ، فسال للجائزة لعاب الأعراب ، ولا يحرك الأعرابي كالمال ، وليس كالابل عند الأعرابي مالاً يحرص على اقتنائه ويعمل على الاستكثار منه .

★ ★ ★

كان السرادق الكبير الذي يقيمه بنو مدلج لضيفانهم واجتماعاتهم غاصاً بالسادة منهم ، وكان حديثهم يدور حول

الخلاف الشديد بين محمد وقومه من قريش ، وكان سراقة بن مالك يتصدر الحوار الدائر حول هذا الموضوع ، ويرى أن محمداً قد بالغ في عدائه لعشيرته وذهب بعيداً في مخالفة قومه ، وذلك حين سبّ آلهتهم وعاب آباءهم ، وأن قريشاً على حق في ملاحقتها لمحمد وأتباع محمد .

قال واحد من الجالسين مخاطباً سراقة : لعلك يا أبا سفيان تعيد النظر في موقفك وتعود عن رأيك لو استمعت لمحمد واجتمعت به ، فإني سمعت القرشيين يقولون بأن لحديثه طلاوة وحلاوة ، وأن لدعوته وقعاً في القلوب الرقيقة والنفوس الصافية والآذان الواعية ، وأن الذين تابعوه على دينه لا يعودون عن عقيدتهم ولو نشروا بالمناشير ، وقد جربت قريش معهم كل الوسائل فلم تفلح في صدهم عن دينهم الجديد ...

ولم يجب سراقة ، ولعله رأى في رأي مخاطبه شيئاً من الصواب ، أو لعل الحديث الذي جدّ صرفه عن الرد أو عن مجرد التفكير فيه ، فقد دخل السرادق رجل يقول: إنّ قريشاً رصدت مائة ناقة لمن يقتل محمداً أو يأتي به أسيراً ، وهم يظنون أنه يأخذ الآن طريق الساحل متجهاً نحو يثرب .

حركت هذه الأخبار أطماع الجالسين ؛ مائة ناقة يضمها واحدهم إلى ما عنده من نوق تثريه ، وتثري ولده من بعده ، ثم إنها ترفع من شأنه بين قومه ، وتضعه في الذروة من السيادة والقيادة فيهم .

وأمر كل سيد من هؤلاء السادة الطامعين أتباعه أن يبحث عن محمد في كل ركن من أركان الصحراء وفي كل زاوية من زواياها ، وفي كل جزء من أجزاء الساحل لعلهم يجدون محمداً فيظفرون بجائزة قريش .

انطلق الأتباع يبحثون عن ركب محمد ، وحاول السادة الانصراف إلى أحاديثهم المعتادة ، ولكنهم كلما حاولوا الخوض في شأن من شؤونهم الخاصة ، أو في أمر من أمور القبيلة والعشيرة ، قطعوا الحديث عن كل ذلك ، وعادوا للحديث عن قريش ومحمد ، وعن الجائزة التي تنتظر من يظفر بمحمد .

وألح عليهم الحديث حتى صرفهم عن كل حديث سواه ، وساد المجلس جوّ من الانتظار والترقب ، وطاف في خيال كل واحد من هؤلاء السادة مرأى الابل وهي تُقدم إليه من قريش ، وهو يضمها إلى ماله ، ثم مرأى السادة من قومه وهم ينظرون إليه نظرة الحاسدين ، وفي نفس الوقت نظرة المجلّين له بسبب هذا الثراء الذي غدا فيه .

ودخل مجلس القوم رجل توجه بالحديث إلى سراقة وقال : يا سراقة ، إني رأيت أسودة (أشخاصاً) بالسواحل ، وإني أظنهم محمداً وصحبه .

لقد واتت الفرصة للغنى ، ولكن سراقة يخشى أن يشركه في الجائزة هؤلاء الجالسون ، فلا بُدّ له أن يدبر الأمر للتخلص

من منافستهم ، فسارع يردُّ على الرجــــل ويقول : لا ، لا ، ليس من رأيت محمداً وصحبه ، إنما هم جماعة من عبيدنا وصبياننا انطلقوا قبل قليل يطلبون ضالة لنا .

ثم أومأ للرجل بالخروج ، وتلبث قليلاً قبل أن يعتذر للقوم ويخرج مسرعاً الى بيته .

لقد تيقن سراقة أن الركب الذي أشار إليه الرجل هم محمد وصحبه ، لذا عمد إلى خداع الجالسين ، وانسل إلى بيتـــه ، ونادى جاريته وأمرها أن تسرع إلى فرسه فتعدها له وتخرج بها إلى بطن الوادي وتنتظره هناك .

وما أسرع ما جهز سراقة سيفه ورمحــه ، وانطلق بهما إلى حيث تنتظره الجارية بفرسه ، فاعتلاه بنشاط ظاهر ، وانطلق به ينهب الأرض نحو الركب الذي سيؤمن له قتلهم مالاً وفيراً وغنىً عريضاً .

وألح على فرسه لكزاً ونخزاً ،يود أن تطوي له الأرض حتى يدرك محمداً ، وكلما بدا له سواد حث فرسه وألهب ظهرهـــا بسوطه ، ولما بدا له ركب رسول الله طارت نفسه فرحاً ... لقد أوشك الأمل أن يكون واقعاً ، لقد أدرك سراقة محمداً ، وما عليه إلا أن يأسره أو يقتلهوتكون له جائزة قريش خالصة من دون الناس .

كان ركب رسول الله يسير وئيداً متمهلاً ، رسول الله يسير

إلى مقصده ولا يلتفت وراءه أبداً ، وأبو بكر يسير تارة أمام رسول الله وتارة أخرى خلفه ، ينظر يمنة ويسرة ، ويبحث في كل صوب وناحية ، ورسول الله يسأله لم تفعل هذا يا أبا بكر ؟ فيقول : يا رسول الله ، أتذكر الرصد فأمشي أمامك ، وأتذكر الطلب فأسير خلفك .. نفسي لك الفداء يا رسول الله ؛ ويبتسم رسول الله – ﷺ – ويدعو لأبي بكر بخير .

ويتنبه أبو بكر لوقع أقدام فرس خلفه ، فيلتفت فإذا بسراقة بن مالك قد لحقهم ، فيقول أبو بكر لرسول الله : يا رسول الله ، هذا الطلب لحقنا ، ثم يستعبر باكياً ، فيقول له رسول الله : ما يبكيك يا أبا بكر ؟

فيقول الصديق : أما والله ما على نفسي أبكي ، ولكني أبكي عليك .

فيقول عليه السلام : « لا تحزن إن الله معنا » .

فيقول أبو بكر : ألا تدعو عليه يا رسول الله ؟

فيدعو رسول الله قائلاً : اللهم اكفناه بما شئت .

كان سراقة قد وصل إلى مسافة قريبة من الركب حتى إنه ليسمع قراءة رسول الله ودعاءه ، وما إن أتم رسول الله دعاءه حتى عثرت فرس سراقة بفارسها وطرحته أرضاً ، فأسرع إليها فأنهضها ، ثم امتطاها ، وحاول اللحاق برسول الله ، وقد

أشرع رمحه ، ولكن رسول الله يدعو عليه ثانية ، فتسيخ يدا فرسه في الأرض حتى الركبتين ، فيدعو سراقة رسول الله ويقول : يا محمد ، ادع الله أن يخلصني ، ولك علي أن أردّ الطلب .

فدعا له رسول الله ، فتخلصت فرسه ... وركْبُ رسول الله سائر لا يتوقف .

ولما استوى سراقة على فرسه وهمّ بالانصراف والكف عن ملاحقة رسول الله ، طاف بمخيّلته منظر الإبل المائة ، فأبت نفسه الطامعة أن يتركها تفلت منه ، وقال في نفسه : لا شك أنني أظلم نفسي إن تركت محمداً يمضي لسبيله وقد أدركته ، إن مائة من إبل قريش تنتظرني ، فهل أتركها لصدفة حدثت أوقعتني عن فرسي ؟ إنني إن حدثت أحداً بهذا سخر مني وهزىء بي ، عليّ أن أدرك محمداً قبل أن يفوتني !

وعاد سراقة لملاحقة رسول الله ، فلما أبصر به أبو بكر وأخبر رسول الله ، عاد الرسول فدعا عليه مرة أخرى ، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها وألقته عن ظهرها ..

قال سراقة في نفسه : لا شك أن هذا الرجل ممنوع ، ولا يمكن أن أدركه وأنال منه ، ولا شك أن رجلاً هذا شأنه سيكون له شأن كبير ، فإذا ما فاتني أن إدرك الجائزة، فيجب أن لا يفوتني أن آخذ منه أماناً أتوصل به إليه إذا ما فاز على

خصومه وانتصر ، وعلا شأنه وانتشر أمره ..

نادى سراقة رسول الله وقال : يا رسول الله ، أنا سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ، انظروني أكلمكم ، لا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، وأنا لكم نافع غير ضار ، ولا أدري لعل الحيّ فزعوا لركوبي ، وأنا راجع رادهم عنكم .

قال رسول الله لأبي بكر : قل له ماذا تبغي ؟

قال سراقة : يا محمد ، ادع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك ، وأردّ من ورائي .

فدعا رسول الله ، فانطلقت الفرس .

قال سراقة . يا محمد ، إني لأعلم أن أمرك سيظهر على الناس ، فاكتب لي أماناً إن أتيتك به أكرمتني .

فأمر رسول الله – ﷺ – عامر بن فهيرة أن يكتب له أماناً فكتب .

قال سراقة : يا محمد ، أمامك إبلي وغنمي ، ستمر عليها بعد حين ، فخذ هذا السهم من كنانتي ، وخذ منها حاجتك .

قال رسول الله – ﷺ – : يا سراقة ، إذا لم ترغب في دين الإسلام ، فإني لا أرغب في إبلك ومواشيك ، ولكن ردّ عنا الطلب .

وثنى سراقة عنان فرسه ، وهم أن ينصرف ، فطلب رسول

الله من أبي بكر أن يردّه ، فلما عاد قال له رسول الله : كيف بك يا سراقة إذا تسوّرت بسواري كسرى ؟!

أذهل هذا الوعد سراقة ، فوقف لا يحير جواباً لفترة ، ومرت به أطياف وأفكار وتساؤلات :

يا إلهي ، بم يعدني هذا الرجل المهاجر؟ بم يعدني هذا الرجل الذي يطلبه الناس ويجرون خلفه ليقتلوه ؟ ما هذه الثقة التي تملأ نفسه حتى يعدني هذا الوعد ؟ ... إنه لا يجد شربة الماء أو اللبن إلا بالجهد والتعب ويعدني بسواري كسرى ... لا ، لا ، إنك واهم يا سراقة ، لعل الأمر اختلط عليك فخيل إليك أنك سمعت ما لم يقله محمد .. أو أن محمداً يعني كسرى آخر غير الذي يحكم الفرس أقوى دولة وأعظم أمة .

وانتبه سراقة من دهشته ، وأحب أن يتأكد مما سمع فقال لرسول الله : أكسرى بن هرمز ؟

قال عليه السلام : نعم .

واستدار سراقة بفرسه وأرخى عنانه ، وانطلق عائداً من حيث أتى ، وقد حمل معه أمان رسول الله ووعده بسواري كسرى .

وفي طريق عودته التقى سراقة بجماعة ممن يطلبون اللحاق برسول الله فقال لهم : إلى أين أنتم ذاهبون ، وماذا تطلبون ؟

قالوا : نطلب محمداً ، ونظنه قد سلك هذا الطريق .

قال : لقد كفيتم هذا الطريق ، فاطلبوه في غيره .

ثم لقي جماعة أخرى تسلك الطريق نفسه وترجو الغاية ذاتها ، فقال لهم : إني أراكم تحثون مطيكم ، فهل تطلبون شيئاً ؟

قالوا : نطلب محمدا ، فقد جعلت قريش فيمن يقتله أو يأسره مائة من الإبل ونحن نطمع أن ندركه في هذا الطريق .

قال سراقة : إذا أردتم أن تفوزوا بالإبل فاطلبوا محمدا في غير هذا الطريق ، لقد طلبت ما طلبتم ، واستبرأت لكم ما هنا ، فلم أجد شيئاً ، وقد عرفتم بصري بالأثر .

ولم يلق سراقة أحداً يسلك هذا الطريق إلا ردّه ، واستمر على ذلك حتى وصل مكة ، فوجد الناس فيها قد ارتابوا فيما رأوه من حرصه على ردّ الناس عن الطريق ، فنفى عن نفسه ما اتهمه أهل مكة به من تستره على محمد ، ودافع عن موقفه دفاعاً كاد يشي بحقيقة موقفه ، وتقدم منه أبو جهل وأخذه من يده ووقف معه في ركن بعيد عن الناس وقال له : لماذا أقدمت على ردّ الناس عن محمد يا سراقة ؟ أرغبت عن دين آبائك الصيد وأجدادك الكرام وغرك ما سمعته من محمد فتابعته على دينه ؟ !

قال سراقة : إنني لم أتابع محمدا على دينه .

قال أبو جهل : ولم إذن رددت الناس عنه ؟

قال سراقة : لقد رأيت رجلاً يقبل أمره إقبالاً شديداً ، فأحببت أن تكون لي عنده يد لعلي أجدها عندما ينتشر دينه ويسود على العرب أجمعين .

قال أبو جهل : واللات لقد سحرك محمد بقوله ، فخيلت لك نفسك ما لا يكون .

قال سراقة : لو رأيت يا أبا الحكم ما رأيت لفعلت فعلي ووقفت موقفي .

قال أبو جهل ساخراً : وما الذي رأيت يا سراقة حتى تدعوني أنا لأقف موقفك وأفعل مثلما فعلت ؟

قال سراقة :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان، فمن ذا يقاومه؟

عليك بكف القوم عنه، فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأنّ جميع الناس طراً يسالمه .

★ ★ ★

وسار أمر الإسلام كما شاء الله له وقدر ، وتهاوت مقاومة

قريش ، ودخـــل رسول الله - ﷺ - مكة ، ثم انتصر في حنين ، وحاصر الطائف ، ثم بدا له أن يتركها لعـل الله يأتي بأهلها مسلمين دون حرب ، وانصرف رسول الله-عليه السلام- بجيشه عن الطائف عائداً الى مكة .

وكان سراقة يتابـع ما يحرزه رسول الله من انتصارات ، ولكنه كان يؤجل لقاءه برسول الله إلى أن تسلم قريش ، فلمـا علم بالفتح جهز نفسه وانطلق إلى رسول الله وهو يحمـل بيده الأمان الذي أعطاه له الرسول وهو في طريق الهجرة ، ويحمل في نفسه أملاً زرعه فيه رسول الله بأن يتقلد سواري كسرى .

وأدرك سراقة ركب رسول الله في موضع يقال له الجعرانة بين الطائف ومكة ، فدخل في كتيبـة من خيـل الأنصار ، فجعلوا يقرعونه برماحهم ويقولون : إليك .. إليك .. ماذا تريد ؟

فدنا سراقة من رسول الله وهو يرفع أمانه في يده ويقول : يا رسول الله هذا كتابي ، وأنا سراقة بن مالك بن جعشم .

فقال رسول الله - ﷺ : مرحباً بك، هذا يوم وفاء وبرّ ، ادنه .

وتقدم سراقة من رسول الله - ﷺ - وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

❋❋❋

وتتابعت الاحداث ، وبدأ الاسلام بنشر ألويته في بقـاع الأرض ، واخذت ألوية الشرك تتهاوى واحدة بعد أخرى ، وبدأت دولة الفرس تنهار تحت ضربات السواعد الإسلاميـة المؤمنة ، وانهالت الغنائم على عاصمة الاسلام ومدينـة الرسول ـ عليه السلام ـ .

ووصل موكب الغنائم من المدائن الى المدينة ، واجتمـع الناس ليشاهدوا مـا أتي به الموكب من نفائس ، وليأخذوا أنصبتهم منها ، واستعرض عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الغنائم التي لم يسبق للعرب أن رأوا مثلها ، ولما وجد عمر فيها متاع كسرى : سواريه وتاجه ومنطقته ، كبّر ، وكبّر الحاضرون .

قـال عمر : عليّ بسراقة بن مالك ... عليّ بسراقة بن مالك .

قال سراقة : هأنذا يا أمير المؤمنين ... لبيك وسعديك ...

قال عمر : ارفع يديك يا سراقة .

ورفع سراقـة ذراعين نحيفين دقيقين كأنهما محترقان لسوادهما .

ورفع عمر سواري كسرى ووضعهما في ذراعي سراقة .
ثم رفع تاج كسرى ووضعه فوق رأس سراقة ... ثم ألبسه منطقة كسرى .

وكبر الناس حتى ارتجت أطرف المدينة لتكبيرهم .

وبكى سراقة وهو يرجع بتفكيره إلى يوم الهجرة ويستحضر وعد رسول الله - ﷺ - .

وأفاق سراقة من تصوراته على صوت عمر وهو يقول له : قل يا سراقة : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسها سراقة بن مالك بن جعشم ، أعرابي من بني مدلج .

ورفع عمر صوته بهذه الكلمات .

ورفع سراقة صوته بها .

وضج الحاضرون بالتكبير والتوحيد والصلاة على رسول الله .

★ ★ ★

وعاش سراقة بن مالك في ظل دولة الاسلام عزيزاً كريماً ، وتولى لعمر بن الخطاب إمارة البصرة ، وامتد به العمر إلى خلافة عثمان - رضي الله عنه - ، وتوفي بعد أربعة وعشرين عاماً من وعد رسول الله له بسواري كسرى .

قال صفوان بن أمية الجُمحي :

لقد أعطاني رسول الله ﷺ - يوم حُنين وإنه لمن أبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلي .

محاولة صفوان بن أميّة وعمير بن وهب

عاشت قريش أياماً حزينة مظلمة بعد بدر ، فلم تدع الحرب قبيلة في مكة إلا فجعتها بواحد أو أكثر من بنيها ، وعز على قريش أن يشمت بها المسلمون أو غيرهم من القبائل التي تناصبها العداء ، فعزموا على كل من في مكة أن يطوي حزنه ويكبت أساه ولا يستعلن بالبكاء .

وكثرت لقاءات رجالات مكة واجتماعاتهم لينظروا فيما آلت إليه زعامتهم السياسية وقيادتهم الدينية بعد هذا الذي أصابهم في بدر .

وكانت أمامهم مشكلة الأسرى ، فقد وقع في أيدي المسلمين سبعون أسيراً من أهل مكة ، كلهم عزيز على أهله ، حبيب إلى عشيرته ، أثير عند قومه .

وبينما عز على فئة من قريش أن يجتمع عليها القتل والأسر فرأت أن تبعث في فداء الأسرى ، رأت فئة أخرى أن تدع

الأسرى عند محمد ريثما يتاح لها أن تأسر من المسلمين ، فتفك أسراها أسيراً بأسير .

وأقامت قريش على أحزانها تحاول أن تكبتها في أعماقها ، وتجتهد أن تداريها عن أعين أعدائها ، واستمرت على ذلك فترة من الزمن ، ولكن هذه الفترة لم تطل لان العواطف المكبوتة تفجرت ، والقلوب المحترقة تلهفت على لقاء أولئك الأسرى الذين يحتجزهم المسلمون .

وبدأت وفود قريش تفد إلى المدينة ، وراحت تفاوض المسلمين على فداء الأسرى ...

وكان صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وابن عمه عمير بن وهب يجلسان قريباً من الحجر في فناء الكعبة ، وليس لهما من حديث إلا ما كان يوم بدر من قتل وأسر .

قال صفوان : انني يا عمير لا أنام الليل ولا يحلو لي النهار حزناً على الأشراف من أهلي الذين قتلهم محمد ، وإني كلما تذكرت ما صوره لي العائدون من بدر عن قتل أبي وأخي عليّ ثم منظر المسلمين وهم يسحبونهم على وجوههم إلى القليب الذي حفروه لهم ، ثم مشهدهم وهم يُكبكبون فيه ، يملأ نفسي بالحقد على محمد وبالبغض للمسلمين وبالكراهية للدين الذي يدعون إليه ، ويُترع نفسي بالثورة لقتلى عشيرتي ، ويدفعني بكل قوة لأن انتقم من قاتليهم شرّ انتقام .

قال عمير إن ما بك يا بن عمي من حزن على أبيك وأخيك بي مثله ، فإنما أبوك عمي وهو بمنزلة أبي ، وأخوك علي كان لي صاحباً وصديقاً .

قال صفوان : والله يا عمير إن العيش بعد من قضوا في بدر لمرُّ المذاق ، وإني لأشعر أن الحياة بعدهم لا خير فيها .

قال عمير : صدقت والله .

ثم أطرق عمير الى الأرض ، وزفر زفرة طويلة حارّة ، ورفع رأسه وقال : أما والله يا صفوان ، لولا دَيْنٌ عليّ ليس عندي قضاوه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت ناقتي وتوجهت إلى محمد ، وعمدت إليه فضربته بسيفي فقتلته ، فإني سمعت أنه يجلس في أفنية المدينة ويسير في طرقاتها ..

قال صفوان : أوتستطيع ذلك يا عمير ؟

قال عمير باعتزاز وفخر : إنك لتعلم يا أبا وهب أني شديد الساعد جيد الحديدة جواد السعي .

قال صفوان : وكيف تدخل المدينة وأنت رجل محارب لمحمد عدو لما جاء به ؟

قال عمير : أنسيت يا بن عم أن ابني وهباً أسير عندهم ؟ ! سوف اتخذ من أسره علّة وأذهب إلى المدينة بحجة أنني أريد أن أدفع فداءه وأفك أسره ..

كان صفوان مصمماً على الانتقام من رسول الله ، وقد واتته الفرصة الآن ، وما عليه إلا أن يقتضها قبل أن تفلت منـــه وتفوته ، فلربمـا يعود عمير عن رأيــه إذ أعطيت له فرصة للتفكير في الأمر ومراجعة نفسه ، فعاجله بقوله : وأيم الله يا أبا أمية ليس لمحمد غيرك ، لقد علمت قريش أنك شيطانهـــا الأكبر وفارسها المعلم ، وأما مـــا ذكرت من دَيْنك فإن عليّ قضاءه ، وأما عيالك فهم مع عيالي يسعهم ما يسع أهل بيتي ، أراعهم لك وأواسيهم بمالي ما بقوا ...

قال عمير : سأتدبر أمري وأجهز نفسي ، فاكتم مـــا دار بيننا، وإياك أن يعلمه أحد سوانا ، فإن السرّ إذا جاوز الاثنين شاع ، وسرّنا إذا عرفه غيرنا فشلت خطتنــا ، وإذا فشلنــا في قتل محمد ذهب ثأرنا ضياعاً .

قال صفوان : ستجدني أكتم الناس للسر ، ولن يعلم بما دار بيننا أحد ابداً .

★ ★ ★

وترك عمير صفوان ينضم إلى مجالس قريش ، وانسل هو إلى بيته ، فأخذ سيفه وشحذه ، ثم جعل فيه سماً قاتلاً ، وتطلع إلى سيفه وقال يحدث نفسه : إن ضربة واحدة من هذا السيف كفيلة بأن تقتل أقوى الرجال ، وإن السم الذي خالط هـذا

السيف إذا مزجته بالسم الذي يغلي في دمي بغضاً لمحمد وحقداً عليه ، لكفيلان بأن يهدما كل ما بناه محمد ، وحقيقان بأن يخلصا قريشاً من هذا الدين الذي زلزل استقرار مكة وأفقد الناس الثقة بأصنامهم ...

وهزّ عمير سيفه في يده ، ولوح به في الهواء ، ثم وضعه في قرابه ، وربت عليه بيده كأنه يعبر عن رضاه عنه واطمئنانه إليه !

وأعد عمير راحلته بنفسه ، فلم يشأ أن يعلم أحد حتى أهل بيته بأنه متوجه إلى المدينة ، أو حتى أنه خارج في رحلة طويلة ، وخرج براحلته إلى ظاهر مكة ، وهناك امتطاها ووجهها نحو المدينة .

ولم يكن عمير من أولئك الرجال الذين يحسبون للعواقب حساباً ، بل كان يقدم على فعلته ويدع نتائجها للظروف ، وما كانت الظروف تهمه أو تقلقه ، فإنه ربما حل مشكلته التي وقع فيها بمشكلة أخرى تنسي الناس التي سبقتها ، وكان بأفعاله هذه يترك قريشاً في يأس من إصلاحه أو إيقافه عند حدّ ، حتى إنهم قالوا عنه بأنه شيطان من هاته الشياطين التي ابتلتهم بها آلهتهم لما يقترفونه من أفعال لا ترضى عنها ، أو لما يقصرون به من إكرامها وإراقة الدماء تحت أقدامها !

لهذا لم يفكر عمير وهو متوجه إلى المدينة بأن له ولداً فيها

يئن في محنة الأسر ، وأنه إذا ما أصاب النبي أو أحـــداً من المسلمين بسوء فلربما عمد المسلمون إلى ابنه فقتلوه ، ولم يفكـر أيضاً إن كان عمله هذا سوف يجلب الشر لقومه وسيبعث الحرب من جديد ، أو أنه سوف يلاقي حتفه إذا ما أمسك به المسلمون في المدينة ، لم يفكر بهذا أو ذاك لأن نفسه لم تتعود على وزن الأمور والنظر في عواقبها، لذا فإنه استمر سائراً الأيام والليالي، لا يشغل تفكيره إلا هذا السيف المعلق في عنقه وذلك الرجل الذي يتوجه لقتله !

★ ★ ★

وفي المدينة كان المسلمون يجلسون في أفنية المسجد النبوي في حلقات يتحدثون عن بدر ، وعما أصابوه فيهـا من نصر ، ويتحدثون عن هذه الوفود التي ترد من مكة مطالبـة بفـداء الأسرى ، ويبدون إعجابهم بما يبديه الرسول الكريم من تسامح مع الأسرى الفقراء ومن رفق بذويهم ، وبينما هم في أحاديثهم هذه إذ وصل عمير بن وهب ، وأناخ راحلته على باب المسجد، ونزل عنها وسيفه يتدلى من عنقه !

رأى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عمير بن وهب ، فهب واقفاً من بين أصحابه وقال لهم : أتدرون من هذا الذي أناخ راحلته هناك ؟ إنه عدو الله عمير بن وهب ، ذلك الذي

حرّش بيننا يوم بدر ، وهو الذي طاف بنـــا على فرسه يحزر عددنا وعتادنا ، والله ما قدم المدينة إلا لشرّ !

وأسرع عمر إلى رسول الله – ﷺ – وقال : يا نبي الله ، صلى الله عليك ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه .

قال – عليه السلام – : فأدخله عليّ .

وأسرع عمر – رضي الله عنه – إلى من كان معه في مجلسه من الأنصار وقال لهم : ادخلوا على رسول الله ، فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

فأسرع الأنصار بالدخول على رسول الله .

وأقبل عمر على عمير ، وأخذ بحمالة سيفه ، ولفهـــا حول عنقه ، وأمسكه بها ، ثم دخل به على رسول الله – ﷺ – .

ولما رآه الرسول على هذه الحال ، قال لعمر : أرسله يا عمر .

ثم نظر إلى عمير وقال له : ادن يا عمير .

وتقدم عمير وحيا بتحية الجاهلية فقال : انعموا صباحاً !

فقال رسول الله – ﷺ – : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ، وجعل تحيّتنا تحية أهل الجنة ، وهي السلام .

قال عمير بصلف جاهلي : إن عهدك بها لحديث !

قال رسول الله – عليه السلام – : ما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهـــذا الأسير الذي في أيديكم ، ابني وهب ، أريد ان تفادوني به ، فأحسنوا فيه ، فإنكم الأهل والعشيرة .

قال – عليه السلام – : فما بال السيف في عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟! إني أُنسيته في عنقي حين نزلت .

قال – عليه السلام – : اصدقني ما الذي جئت له .

قال : ما جئت إلا لذلك !

قال – ﷺ – بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دَيْن عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمـــل لك صفوان بدَيْنك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

وغاب عمير لحظة في تفكير عميق ، وقال لنفسه : قد والله كان ذلك ، وما كان لأحد أن يُعلم محمداً بما كان بيننا ، لأن ما كان بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد من الناس ، إنني أظلم نفسي إن كذبت محمـــدا ، وأظلم نفسي أكثر وأكثر إن تماديت في الضلال واصررت على الكفر ، لقد وضح الأمر ، وإن محمداً لنبي ...

وانتبه عمير من أفكاره ، والتفت إلى رسول الله وقـال :

أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول نكذبك بما تأتي به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ، فكيف أبدأ بالإسلام يا رسول الله ؟

وأقبل الصحابة على عمير يهنئونه بما أنعم الله به عليه من الهداية للإسلام ، وطلبوا منه أن يغتسل ثم يشهد شهادة الحق .

وكانت لحظة من لحظات الإيمان المفعمة بالحب ، المتدفقة بالإخلاص ، عندما وقف عمير أمام رسول الله — ﷺ — وحوله جماعة من الصحابة تتوثب الفرحة من عيونهم لإسلامه ، وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فالتفت رسول الله إلى أصحابه وقال لهم : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

وتنافس الصحابة في تنفيذ أمر رسول الله ، فهذا يعلمه الصلاة ، وذاك يقرئه القرآن ، وثالث ينطلق الى ابنه الأسير فيفك قيده ويأتي به إلى أبيه ...

وأثر هذا الحب الذي أحاطه به إخوانه من المسلمين في نفسه أعمق تأثير ، فتقدم إلى رسول الله — ﷺ — وقال : يا رسول الله ، إني كنت في جاهليتي جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد

الأذى لمن كان على دين الإسلام ، فأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة ، فأدعو أهلها الى الله وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم .

وأذن رسول الله لعمير بأن يعود إلى مكة ليدعو لدين الله، والتفت عمير إلى ابنه وهب كأنه يسأله عن موقفه من الإسلام، وهل يكون أول من يسلم بدعوة أبيه ، فرأى من ابنه ما سرّه وطمأن فؤاده ، وتقدم وهب وشهد شهادة الحق ، وأصبح عضواً في المجتمع الإسلامي العظيم .

***

كان صفوان في مكة ينتظر أن يأتيه خبر عمير وما فعله في المدينة ، لقد كان واثقاً من شجاعة عمير ومقدرته ، فلم يكن يشك في أنه سينفذ ما اتفقا عليه ، وأنه سيملأالجزيرة بهذا الخبر الذي سيعفي على كل خبر سواه ، وأنه سوف يكون حديث الناس في أسمارهم وأسفارهم وفي مجالسهم ونواديهم لسنوات طوال .

كان صفوان لا يمل الخروج إلى ظاهر مكة ، ينتظر على رأس الطريق القادم من المدينة ، وكلما رأى قادماً سأله إن كان يحمل أخباراً من هناك .

ولاحظ أهل مكة على صفوان هذا الخروج ، وظنوه يفعل ذلك عزوفاً عن مخالطة الناس لشدة ما يجد في نفسه من حزن

وأسى على أبيه وأخيه اللذين صرعا في بدر، فأحبوا أن يذهبوا إليه فيواسوه لعله يعود إلى سابق عهـده في مشاركتهم بجدهم وهزلهم ..

وما كان أشد دهشتهم عندما لم يجدوا عنده حزناً وغماً، فقد وجدوا رجلاً لا يرفع عينه عن طريق المدينة، بل يراقبها بدقة ولهفة وشوق، كأنه ينتظر قافلة له تقدم بتجارة من هاته التجـارات التي تعود المكيون أن يقفوا مثـــل هذه المواقف بانتظارها، فقالوا له : والله يا أبا وهب لقد كنا نظنك تخرج إلى هذا المكان تخلصاً من لقائنا حتى لا نرى في وجهك الحزن على قتلى بدر، فلما جئناك وجدناك صابراً أشد ما يكون الصبر، سالياً أشد ما يكون السلو، فمـا سبب خروجك كل يوم إلى هذا المكان ؟

قال صفوان وهو يتطلع إليهم بابتسامة تحمـل ألف مغزى وتطوي ألف معنى : إنما أخرج إلى هنا لأني أنتظر أن أسمـــع اخباراً جديدة تأتي من صوب المدينة، تدخـــل الفرحة إلى نفوسكم وتجلب السرور إلى قلوبكم .

قالوا : ما الذي يأتينا من المدينة ويسرنا يا أبا وهب ؟ إن كل ما نسمعه عن محمد وأصحابه يغيظنا ويبعث الأسى في نفوسنا والأسف في قلوبنا .

فيلتفت إليهم صفوان باسماً ويقول : لا، لا، أبشروا يا

اهل مكة بوقعة تأتيكم قريباً تنسيكم وقعة بدر .

قالوا : ما من شيء ينسينا وقعة بدر ، وهل هنـــاك من حدث ينسينا أبا الحكم وأبا البختري وأباك يا صفوان ؟ لقـــد حفرت بدر في قلوبنا ندوباً غائرة لا تطمسها الأيام ووقائعهـا ولا تمحوها الليالي وشدائدها .

وبينما هم في هذا الحديث طلع عليهم راكب قادم من المدينة ، فأسرع إليه صفوان وتلقاه بالسؤال الذي يشغل فكره ويلح أبداً على لسانه : هل من أخبار جديدة في المدينة ؟

قال الرجل ببساطة أغاظت صفوان : ليس هناك من خبر جديد سوى ما علمته من إسلام ابن عمك عمير بن وهب !

قال صفوان وقد أسقط في يده: أحق ما تقول أيها الرجل؟ إني لأظن ابن عمي أبعد الناس عن الإيمان بما جاء به محمد .

قال الرجل : بل إني رأيته يشهد أن محمـــدا رسول الله ، ورأيت أيضاً ابنه وهباً يفعل ذلك .

وانتابتِ صفوان موجـــة من الغضب فحلف ألا يكلم عميراً أبداً ، وأقسم أن لا ينفعه بشيء بعد اليوم .

وانصرف صفوان إلى مكة كاسف البـــال ، حزين النفس ، ثائر الخواطر ، يملؤه الحنق على ابن عمه عمير ، ويطغى عليـــه اليأس من الانتقام لأبيه أمية وأخيه عليّ .

★ ★

وعاد عمير إلى مكة ، واتجه إلى بيته ، وأظهر أمام أهل مكة تصديقه لرسول الله وإيمانه بدعوة الإسلام .

وهرع الناس إلى صفوان يبلغونه وصول عمير ، ويخبرونه بما أظهره من الإسلام ، فقال : قد علمت أنه نكس وصبأ ، والله لا أنفعه ولا عياله بنافعة .

وجاء عمير إلى صفوان وناداه : يا صفوان ... يا بن عم .

فأعرض عنه صفوان ولم يرد عليه .

فقال عمير : يا أبا وهب ، أنت سيد من ساداتنا ، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له ، أهـذا دين ؟ إني أكفر بالأصنام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وصمت صفوان ولم يجب... وكان يود لو يستطيع أن يؤدب ابن عمه ، ولكن عميراً رجل يستطيع أن يمنع نفسه من صفوان ومن بني جمح وممن في مكة جميعاً ، فآثر صفوان أن ينصرف عنه ويتركه وشأنه .

وأقبل عمير على أهل مكة يدعوهم للإسلام ، فأسلم بدعوته ناس كثير .

وضاق به أهل مكة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا به شيئاً .

ورضي عمير عن الذي قام به في مكة ، ورأى أنه كفّر عما قام به في جاهليته من أذى المسلمين عندما آذى المشركين في أنفسهم وآلهتهم .

وأحب أن لا يبعد كثيراً عن رسول الله ، فحزم أمره وهاجر إلى المدينة :

وشارك عمير في الجهاد مع رسول الله ابتداء من معركة أحد ، ولم يتخلف بعد ذلك عن غزوة أبداً .

وسار المسلمون من نصر إلى نصر ، وكذلك شأن الحق دائماً ، وبدأ الرسول - ﷺ - يستعد للفتح الأكبر ، وملأ السرور قلوب المسلمين ، فقد حانت الساعة التي طالما انتظروها ..

واستعد عمير مع إخوانه لفتح مكة ، وفي ذهنه وخاطره ابن عمه صفوان الذي ما زال مصراً على عناده ، مقيماً على كفره ، وألحت على عمير الخواطر وأخذ يمني نفسه بأنه يستطيع أن يقنع صفوان بالاسلام إذا ما التقيا في مكة .

وداعبت الآمال عميراً وهو يدخل مكة مع الجيش الفاتح ، فأسرع في البحث عن صفوان ، فوجد أنه فرّ هارباً إلى جدة خوفاً من رسول الله .

ولم يفارق الأمل عميراً ، فأسرع إلى رسول الله وقال له :

يا رسول الله ، إن صفوان سيد قومي ، وقد خرج هارباً منك، فأمنه يا رسول الله .

قال عليه السلام : هو آمن .

ثم أعطى رسول الله عميراً عمامته التي دخل فيها مكة ليعرف صفوان بها أمانه .

فخرج عمير مسرعاً خلف صفوان ، فأدركه في جده فقال له : إلى أين تذهب يا أبا وهب ؟

قال صفوان : أذهب في هذه الأرض .

قال عمير : ارجع يا أبا وهب ، إن رسول الله أحلم الناس وأوصلهم وإنه ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك .

قال صفوان : إني أخافه على نفسي يا أبا أمية ، وقد علمت أنه أهدر دمي .

قال عمير : رسول الله احلم من ذلك ، وقد أخذت لك الأمان منه ، وهذه عمامته التي دخل بها مكة جئت بها إليك دليلاً على أمانه .

وأطاع صفوان ابن عمه عميراً ، ورجع معه إلى مكة ، ودخلا معاً على رسول الله — ﷺ — ، فقال صفوان : إن ابن عمي أبا أمية يزعم أنك أمنتني .

قال رسول الله – ﷺ – : صدق .

قال صفوان : فاجعلني بالخيار شهرين حتى انظر في هـــذا الدين

قال – عليه السلام – : أنت فيه أربعة أشهر .

* * *

وأقام صفوان على كفره ..

واستعد رسول الله ليقابل قبائل هوازن التي أخذت تجمع الجموع لحربه ، واحتاج إلى سلاح يزود به جيش المسلمين، فعلم أن عند صفوان سلاحاً ، فأرسل إليه رسول الله ، فلما حضر قال له : أعرنا سلاحك نلقى به عدونا .

قال صفوان : أغصباً يا محمد ؟

قال – عليه السلام – : بل عاريَّة مضمونة نؤديها إليك .

قال صفوان : ليس بهذا بأس .

وزود صفوان الجيش الإسلامي بسلاح مائة رجل ، وخرج مع الجيش المتجه لمحاربة هوازن في حنين وهو ما زال مقيماً على كفره .

وفاجأ العدو المسلمين أول المعركـــة ، فدبت الفوضى في

الجيش ، ورأى طلقاء مكة الذين أسلموا يوم الفتح أن هزيمة المسلمين ساحقة وأنه لا يردهم إلا البحر ، وصرح هؤلاء بأمانيهم في هزيمة المسلمين ، فقال كلدة بن الحنبل ، أخو صفوان لأمه ،: الآن بطل السحر !

فانتفض صفوان لما سمع ، وقال لكلدة : اسكت فضّ الله فاك ، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن !

لم يغضب صفوان إيماناً ولكنه غضب عصبية .

إذن فلا زال صفوان على شركه ، ولا زال في قلبه شيء من النفور من دين الحق ...

وعاد الجيش الإسلامي فكرّ علَى كفار هوازن ، وقلب الهزيمة نصراً .

واجتمعت للمسلمين غنائم لا تعد وسبايا لا تحصى .

واقبل رسول الله – ﷺ – على هذه الغنائم فأغدق منها على المؤلفة قلوبهم واعطى صفوان منها مائة ناقة .

قال صفوان : لقد اعطاني رسول الله – ﷺ – يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إليّ .

وأسلم صفوان منصرف رسول الله من حنين .

وعاد رسول الله إلى المدينة ، وبقي صفوان في مكة .

فقال له الناس : إنه لا إسلام لمن لم يهاجر .

وذعر صفوان لما سمع ، وخشي أن يكون ما قيل صحيحاً ، فأسرع إلى رحاله فشدها ، وانطلق حتى أتى المدينة ، ودخل على رسول الله وقال : إن ناساً اخبروني أن لا إسلام لمن لم يهاجر .

فقال له رسول الله – ﷺ – : عزمت عليك يا أبا وهب لما رجعت إلى أباطح مكة .

وامتثل صفوان لامر رسول الله ، وعاد إلى مكة وقد اطمأن قلبه على إسلامه .

★ ★ ★

وشارك عمير بن وهب وصفوان بن أمية في الحياة الاجتماعية في دولة الإسلام وتوفي عمير عام ثلاثة وعشرين للهجرة .

وتوفي صفوان عام ستة وثلاثين .

رضي الله عن عمير بن وهب وعن صفوان بن أمية صاحبي رسول الله – ﷺ – .



قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

الآية ١١ من سورة المائدة

محاولة دعثور بن الحارث المحاربي

لم تدرك قبائل غطفان الأحوال المتغيرة من حولها ، فهي لا زالت تعيش على الغزو والسلب والنهب ، لا يهمها إلا ما تجنيه من غنائم ومـــا تفوز به من سبايا ، وهي لم تستطع أن تستوعب النتائج التي تمخضت عنها غزوة بدر ، ولم تأخذ العبرة النافعة مما حصل لقريش فيها ، وهي تظن أن الذي حدث في بدر إنما هو غزوة تشبه تلك الغزوات التي تحدث في طول الجزيرة العربية وعرضها بين القبائل المتنافسة على الماء والكلأ والطامعة بما عند غيرها من نساء ونعم ،فهي عندها كحرب البسوس أو كداحس والغبراء !

وإذا زدنا على هذه النظرة للأحداث عند القبائل الغطفانية ما رُكب في طبيعتها من حب للمغامرة ، ورغبة في الاعتداء ، واستهتار بالنتائج ، تبين لنا مدى الاستعداد عندها للاستجابة لداعي الغزو والسلب والتحرش والاعتداء .

لم يكن من الغريب إذن أن تسارع قبيلتـا ثعلبة ومحارب الغطفانيتان بالاستجابـة لدعوة دعثور بن الحارث المحـارب الغطفاني لغزو أطراف المدينة ، ممنياً نفسه ومن استجـاب له بالغنائم الوفيرة والأسلاب العظيمـة التي يمكنهم أن يستولوا عليها ، وكان يظن أن المسلمين في المدينة قد أصابهـم النصب واعتراهم الإرهاق والتعب مما كابدوه في بدر ، فهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن مدينتهم أو أن يحموا زرعهم وسرحهم .

وتجمع الرجال المحاربون من قبيلتي ثعلبة ومحـارب في ذي أمر[1] ، وهو ماء لغطفان ، استعداداً للانطلاق إلى المدينة...

★ ★ ★

وصلت أخبار هذا التجمع الغطفاني إلى المدينة ، فأسرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخذ زمام المبادرة ، وخرج في أربعمائة وخمسين رجلاً ، وقصد ذا أمر ليفاجىء المتجمعين فيها قبل أن ينظموا أنفسهم ويحزموا أمرهم وينفذوا مؤامرتهم .

وانتشرت عيون الجيش الإسلامي في كل مكان ، وأسرعت طلائعه لاكتشاف الطرق الرئيسية والجانبية ، وعملوا على رصد جميع المنافذ المؤدية إلى المدينـة ، وذلك حتى لا يخالفهـم

(١) بالفتح في الحرفين الأول والثاني مع تشديد الراء .

الغطفانيون فيسلكوا طريقاً من هذه الطرق إلى المدينة ويهاجموها في غيبتهم ، وحرصوا على أن لا يعلم بتحركهم أحد من أفراد العدو أو من المتعاطفين معه ، لذا فقد عمدوا إلى اعتقال رجل وجدوه قادماً من ناحية ذي أمـــر ، وأخضعوه لأسئلة كثيرة يريدون من ورائها أن يعرفوا عنه وعن عدوهم ما يفيدهم وينجح خطتهم في مباغتة القوم قبل أن يتحركوا .

قالوا : من الرجل ؟

قال : مسافر أقصد الحجاز .

قالوا : إنما نسألك عن اسمك وقبيلتك .

قال : اسمي جبار ، وأنا رجل من غطفان ، سيدة القبائل النجدية .

قالوا : أمن قبيلة دعثور بن الحارث ؟

قال وقد بدأ يأخذ حذره : وما أدراكم ما دعثور هذا ؟

قال له واحد من الصحابة : أبلغت بكم الجرأة أيها الغطفانيون أن تجمعوا الجموع لرسول الله ؟ سوف نذيقكم وبال هذه الجرأة عما قريب .

قال الغطفاني : أمن جماعة هـــذا القرشي الذي يدعو إلى الدين الجديد أنتم ؟

قالوا : نعم ، نحن المسلمون ، نحن الذين آمنوا بالدعوة التي جاء بها من عند الله محمد بن عبد الله القرشي رسول الله وخاتم النبيين .

قال الرجل : أيها القوم إنني سمعت بهذا النبي ، وودت لو قابلته ، هل فيكم من يأخذني إليه ، وله مني الشكر ؟

وقدم الصحابة بجبار على رسول الله – ﷺ – فاستقبله الرسول كعادته أحسن استقبال وأدخل، بحسن حديثه وطلاقة وجهه ، السكينة والطمأنينة على قلب الرجل ، فأنس برسول الله ودخلت محبته إلى قلبه ، فسأله رسول الله عن قبيلتي ثعلبة ومحارب واستعدادهما لغزو المدينة ، فقال جبار : لقد غرّرَ دعثور برجال هاتين القبيلتين وأغراهم بالغزو ، وقد اجتمعوا بذي أمر على أن يغزوا المدينة متى أتموا استعدادهم ، ولكنهم يا رسول الله لا يجتمعون حول دعثور اجتماع المحب مع الحبيب ولا يتبعونه اتباع المعجب بالرئيس ، لذا فإنهم لا يستطيعون لقاءك يا رسول الله ، وأنا على ثقة بأنهم إذا سمعوا بقدمك فروا إلى رؤوس الجبال وتفرقوا في أنحاء البلاد ، وأنا سائر معك إليهم، فمرني بما تشاء .

وعرض رسول الله – ﷺ – الإسلام على جبار فأسلم ، ووكل به بلال بن رباح – رضي الله عنه – وطلب منه أن يلقنه الشهادتين وأن يعلمه مبادىء الإسلام وأن يقرئه القرآن ..

وتطوع جبار أن يكون دليل الجيش الإسلامي ، فسلك بالمسلمين طريقاً مختصراً ، ولما وصلوا إلى ذي أمر حيث تجمع

دعثور ومن تبعه وجدوا أن القوم قد نذروا بهم ، وخافوهم ، فتفرقوا في رؤوس الجبال القريبة .

★ ★ ★

ونزل المسلمون بذي أمر ، وعسكروا هناك ، وكان المشركون من غطفان ينظرون إليهم من أمكنتهم في رؤوس الجبال التي فروا إليها ...

واطمأن المسلمون إلى ما وصلوا إليه من إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم وإلى تفريق جمعهم وتشتيت شملهم ، فانتشروا بين الأشجار المتفرقة في المكان الذي نزلوه ، وفاجأتهم السماء بالماء ، وبللت الأمطار ثيابهم ، فانشغل كل واحد بنفسه وشأنه ، ومحمد رسول الله – ﷺ – إلى شجرة كبيرة ، فنزع ثوبيه المبتلين وعلقهما على الشجرة ليجفا ، واضطجع تحت الشجرة بعيداً عن أصحابه ، وعلى مرأى من المشركين الملتجئين إلى رؤوس الجبال المطلة على ماء ذي أمر .

ولاحظ المشركون انشغال المسلمين بما أصاب ثيابهم من بلل وبأشياء أخرى من شئونهم ، ولاحظوا انفراد رسول الله وابتعاده عن أصحابه بلا حراسة ، بل لاحظوا أنه اضطجع تحت الشجرة كأنه نائم مستغرق في نومه ، فظنوا أن الفرصة واتتهم ، فقالوا لدعثور : لقد انفرد محمد عن أصحابه ، ولا

نجده أخلا منه الساعة ، فعليك به ، وإياك أن يفلت منــك ، فأنت فينا رأس الشجاعة ، وأنت في غطفان مضرب المثل في الجرأة والإقدام ، فهيا بادر فرصتك بنفسك قبـــل أن تفوتك فتندم ...

قال دعثور وهو ينظر إلى المكان الذي فيه رسول الله ـ ﷺ ـ : حقاً إنها لفرصة مواتية ، وإن قتل رجل كهذا لا يسنح في الدهر مرة .

قالوا : وماذا تعني يا دعثور بقولك هذا ؟

قال : أعني أنني إذا تمكنت من قتل محمــد صرت حديث المجالس في طول الجزيرة وعرضها ، وصار الناس يتحدثون عن شجاعتي وإقدامي ، وذكرتني قريش بالتجلة والاحترام وأقرت بأن الذي فعلته يطوق عنقهـا بالجميل على مدى الأزمـــان ، فتزودني بجوائزها وعطاياها ، وأنتم تعلمون من قريش ومـــا عطاياها !

وأبدى السامعون إعجابهـــم بالذي سمعوه من دعثور ، وحثوه على الإسراع في إنجاز مهمته ، فحمل سيفه وهبط من مكانه في الجبل ، وأخذ يتقي بالصخور والشعاب مخافة أن يراه أحد من المسلمين قبل أن يصل إلى رسول الله ، واستطـــاع أن يتوارى عن الأعين ، وأن يقف فجأة أمام رسول الله ، ويشهر

سيفه ، ويقول بلسان المنتصر الذي أدرك غايته : يا محمد ، من يمنعك مني اليوم ؟

ونظر رسول الله – ﷺ – نحوه ، وقال له بهدوء وحزم : الله .

وتبدى جبريل – عليه السلام – في صورة رجل ، ودفع يده في صدر دعثور ، فوقع لظهره ، وأفلت السيف من يده ، فتناول السيف رسولُ الله وقال لدعثور : من يمنعك مني ؟

وتطلع دعثور نحو رسول الله – ﷺ – فوجد حزماً وعزماً ، ورأى وقاراً ونوراً ، فأغمض عينيه وراح يستعرض اللحظات التي مرت ؛ فتذكَر نفسه وهو يجرد سيفه على رأس الرسول ، واستعاد صورة ذلك الذي دفع في صدره وألقاه أرضاً ، فعرف أن من دفعه ملاكاً ، وأن ما حدث لا يكون لرجل عادي ، وأن الذي رآه معجزة لا تكون إلا لنبي ، وانتبه على كلمات رسول الله التي ما زالت ترنّ في أذنيه : من يمنعك مني ؟

فقال : لا أحد يمنعني منك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً بعد اليوم .

ورد رسول الله – ﷺ – على دعثور سيفه ، فاستأذن أن

يعود إلى القوم الذين جمعهم لحرب المسلمين ليدعوهم إلى الإسلام، فأذن له رسول الله – عليه السلام .

.. ❋ ..

ما إن وصل دعثور إلى رأس الجبل الذي هرب إليه أصحابه فراراً من رسول الله حتى هرعوا إليه وتحلقوا حوله، وكلهم يبدي عجبه ودهشته مما فعله، فما كانوا يحسبون أن رجلاً في شجاعة دعثور وإقدامه يفعل هذا الفعل ويتصرف هذا التصرف، قالوا له : ويلك، مالك؟ ما عهدناك جباناً رعديداً يسقط السيف من يدك، ولقد رأيناك في مواقف أشد هولاً وأكثر رعباً من موقفك هذا، فما رأينا السيف اهتز في يدك فضلاً عن أن يسقط، فما الذي جرى لك ؟

قال دعثور : أقلوا عليّ اللوم أيها القوم، فوالله إني لقائم على رأسه والسيف مشرع في يدي أريد أن أفتك به، فإذا برجل طويل بثياب بيض يدفع في صدري فأقع لظهري، فعرفت أن الذي دفعني ملك، وأن محمداً معصوم من الناس، فأيقنت أنه نبي وأسلمت .

قالوا بصوت واحد يمتلىء بالدهشة : أصبأت يا دعثور ؟ أتركت دين الآباء والأجداد ؟

قال رجل من بني محارب : إني أعرفك يا دعثور، فما

أظنك أسلمت حقيقة ، إنك فعلت ذلك لتتخلص من هـــذا الموقف ، هيا وعد لما كنت فيه من الإعداد للغــزو والسلب ، فما أظن الذين مع محمد يصمدون لحربنا .

قال دعثور : حقاً إنك تعرفني في جاهليتي ، أما في إسلامي فإنك لا تعرفني .

قال المحاربي : كيف يكون هـــذا وليس بين جاهليتك وإسلامك إلا لحظات ؟

قال دعثور : إن اللحظات التي تفصل بين الإيمان والكفر لحظات تمتد وتطول وتتسع حتى لتغدو دهوراً .

قال المحاربي : لم نعد نفقه شيئاً مما تقول ، ولا نرى بينك على ديننا وبينك على الدين الجديد كبير فرق .

قال دعثور : إن ما بين الكفر والايمان لفرق لا يدركه إلا من أسلم ، ولا يحس به إلا من خالط الإيمـــان قلبه وسرى في دمائه .

قال رجل من بني ثعلبة : حقاً لقد تغيرت ، فمـــا الذي غيرك هكذا يا دعثور ؟

قال دعثور : إن الذي رأيته في محاولتي لقتل محمد ملأ نفسي تصديقاً وأفعم قلبي يقينـــاً بأن محمداً نبي ، وإن الذي لمسته من شخصية محمد وحسن معاملته وصدق لهجته لم يدع أمامي مجالاً

الشك بأن محمداً رسول الله ، وأن ما يدعو إليه حق وصدق ، وأنا أدعوك وأدعو جميع من ههنا ليدخلوا في الإسلام ليشعروا بالذي شعرت به من حلاوة الإيمان .

قال الثعلبي : حقاً إني لأسمع عجباً ، دعثور بن الحارث سيد الصعاليك وبطل المعارك وفارس الفرسان ينقلب هكذا في لحظة إلى حمل وديع ، ويصبح داعية للدين الجديد ؟ إن ديناً جعلك هكذا لجدير بأن يتبع ، وأنا أشهد معك أن محمداً رسول الله ...

وأسلم بدعوة دعثور كثير ممن كانوا معه ، ونزلوا إلى رسول الله وشهدوا بشهادة الحق ، وترك رسول الله في بني غطفان نفراً يدعون إلى الحق وبه يؤمنون .

ونادى منادي رسول الله بالرحيل .

وسار الركب المؤمن عائداً إلى المدينة ، وقد كفاهم الله شرّ القتال ، وفازوا بإيمان عدد من رجال غطفان .

وأنزل الله على رسوله فيما حدث في ذي أمر آيات بينات ؛ قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١) » .

(١) الآية الحادية عشرة من سورة المائدة .

فلما أُشربوا غدراً وكفراً وجدَّ بهم عن الحق النفورُ
أرى الله النبيَّ برأي صدقٍ وكان الله يحكمُ لا يجورُ
فأيَّدهُ وسلَّطهُ عليهم وكان نصيرهُ، نعم النصيرُ

كعب بن مالك الأنصاري

محاولة يهود بني النضير

وصل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، وبدأ الإسلام مرحلة جديدة يقيم فيها دولة الإسلام ، فكان أول ما قام به الرسول الكريم أن بنى مسجده ، والمسجد في الإسلام مركز جميع النشاطات ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، وأعلن أن المسلمين أمة واحدة متكافلة ، ثم التفت إلى يهود المدينة وعقد معهم معاهدة سلام وأمن ...

وبالرغم من توقيع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة على هذه الوثيقة ، وهم جميع يهود المدينة ، إلا أن طبيعتهم الغادرة ، وسجيتهم الحاسدة ، وجبلتهم الحاقدة ، أبت أن تفي بهذه المعاهدة ، وعملوا بالخفاء تارة وبالعلن أخرى على التآمر على المجتمع الإسلامى الناشىء وعلى رسوله الكريم .



كان مجلس حي بن أخطب ، زعيم بني النضير ، يعج بالوافدين عليه من يهود بني النضير وإخوانهم من بني قريظة ومن شايعهم من منافقي المدينه وكفار الأعراب ، وكان الحديث الذي لا يملّه هؤلاء الوافدون هو الانقلاب السريع والتحول المفاجىء الذي طرأ على المجتمع اليثربي بعد قدوم محمد وإيمان غالبية الأوس والخزرج بالدين الجديد ، وما حدث خلال فترة ضئيلة من قدوم محمد وصحبه من أحداث تثير العجب وتبعث على الدهشة .

قال رجل من الحاضرين: إن الانتصار الذي أحرزه محمد على قريش في بدر أعطى أتباعه ثقة بأنفسهم ، وأنزل الهيبة والخوف في نفوس أعدائهم ومناوئيهم .

قال حيي بن أخطب : وأي هيبة هذه التي تتحدث عنها ؟ وأي خوف هذا الذي تزعمه ؟ إننا معشر اليهود لا نهاب محمداً ولا نخشاه ، ولا نحسب لهؤلاء الذين يدعون أنفسهم بالمسلمين حساباً . . .

قال الرجل : إذا كنتم لا تحسبون لمحمد حساباً ، فلِمَ وقعتم معه معاهدة سلام وأمن ؟!

قال حُيي : إنما وقعنا معه معاهدة لنخدعه ، فهو إذا أمن جانبنا استطعنا أن نتآمر عليه ونؤلب عليه الناس دون أن

يفطن لذلك ، فتكون ضربتنا له حين ننزلها به موجعة قاسية قاضية ...

قال رجل من المنافقين وقد أعجبه ما قاله حيي : واللات إنك يا بن أخطب لذو رأي حصيف ، أين وصلت في كيدك لمحمد وتآمرك عليه ؟

قال حيي باسماً : ليس من الحصافة أن نتحدث في ذلك ، ولكن عليك أن تعلم ، أنت ومن في المدينة ، أننا لن نترك محمداً وصحبه يأمنون في المدينة يوماً واحداً .

قال رجل من اليهود : لقد أوقع محمد بجيش قريش في بدر ، ثم أوقع بإخواننا من بني قينقاع ، ولم نحرك ساكناً ، وتركناه يزداد قوة وبأساً ، ولعمري إن هذا الموقف منا لمعيب ، وإنه لموقف يبعث على الوهن والفشل !

قال حيي : أيها الرجل ، إياك أن تعود لترديد مثل هذا الهراء ، واعلم أن ما حدث في بدر اعطانا الفرصة لأن نؤلب قريشاً على حربه ، فقد غدا لقريش عند محمد ثأراً عظيما ، وهذا الثأر هو مدخلنا لتحريش الحرب بينهم ، أما إيقاعه بإخواننا من بني قينقاع فإنه دافعنا لأن نزيد في حقدنا وبغضنا لمحمد ودعوته ، ولولا أن بني قينقاع سارعوا بالاستسلام لمحمد لعملنا على نصرهم ، ولأرسلنا لهم من لدنا مقاتلين يعينونهم وينصرونهم .

وامتد النقاش واتسع ، وكل يؤيد ابن أخطب ، ويزيد ما في قلبه من حقد وغل ويدفعه لمعاداة الرسول ودعوته دفعاً شديداً ، ويدعُه للكيد للمسلمين والتآمر عليهم دعاً عنيفاً .

ولم يترك الحقد الطامي في قلب حيي وقومه من اليهود متسعاً للتفكير السليم أو حيزاً لوزن الأمور بالميزان القويم ، ولم يعد في عقولهم مجالاً لتقبل المنطق أو للإصغاء للحق ... ، إن الذي يشغلهم الشغل كله هو الفرصة التي ينتظرونها لقتل محمد للتخلص منه ومن دعوته ، وهم مصممون على أن هذه الفرصة إذا جاءت فلن يفلتوها أبداً !

* * *

وما دامت إرادة الله نافذة ، وحكمه لا يبدل ، وما دام حكم الله على الخائنين أن يذوقوا وبال خيانتهم وعاقبة غدرهم ، فإن الأحداث تتابعت بسرعة حتى تضع الفرصة أمام يهود بني النضير ، وحتى يقع حكم الله على الناكثين وتنفذ إرادته بالغادرين .

فقد حدث أن قتل الصحابي الجليل عمرو بن أمية الضمري رجلين من بني عامر ثأراً لسبعين صحابياً قتلهم قومهم في بئر معونة ، وكان العامريان يحملان أماناً من رسول الله – ﷺ – ، ولم يكن عمرو بن أميَّة يعلم بذلك الأمان ، فعزم رسول الله

على أن يدفع لذوي القتيلين ديتهما ، وأخـذ رسول الله في جمع قيمة الدية ، وقرر – عليه السلام – أن يستعين بيهود في هذا الأمر للمعاهدة التي بينهم وبين المسلمين ، ولأن المسلمين في ضائقة مالية ويهود في بحبوحة وثراء عريض .

ذهب رسول الله – ﷺ – إلى بني النضير في حصونهم ، وذهب معه جماعة من الصحابة فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأُسيد بن حضير ، ولمـا رأى بنو النضير رسول الله وأصحابه سارعوا إلى استقبالهـم ، وبالغوا بالترحيب بهم كعادتهم في إجادة النفاق وإتقان التملق ، وقالوا: أهلاً بك يا أبا القاسم في ديارنا ، لقد قلدتنا بزيارتك هذه شرفاً عظيماً ...

وجلس رسول الله – ﷺ – في فنـاء حصنهم ، وأسند ظهره إلى جدار بيت في الفناء ، وجلس الصحابة حوله ، وجاء حيي بن أخطب مهرولاً لا يتوقف لسانه عن الترحيب ، وجلس إلى رسول الله وسأله : ما الذي جاء بك إلى ديارنا يا أبا القاسم ؟ هلا أرسلت لنا فنأتيك ؟

قال أحد الصحابة : جاءكم رسول الله – ﷺ – ليستعين بكم في دفع دية رجلين قتلهما خطأً أخونا عمرو بن أمية الضمري .

قال حيي وهو يوجه خطابه لرسول الله : نعـم أبا القاسم ،

نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ؛ فاسمح لنـا يا أبا القاسم أن نقوم عنك حتى نجمع لك ما تريد .

وقاموا إلى بيت أحدهم ، ولما اطمأنوا إلى أن أحـداً لا يسمعهم قالوا : لقد حانت الفرصة التي انتظرناها طويلاً ، إنما لن نجد هذا الرجلَ على مثل حاله هذه ؛ إنه في حصوننـا ، ويجلس في أفنيتنا ، ومن معه قلة لا يغنون عنه شيئاً ، فاتخذوا بشأنه رأياً يشفي صدور بني إسرائيل جميعاً !

قال حيي : لقد وقعت على الرأي الذي لا رأي بعده .

قالوا : وما هذا الرأي يا بن أخطب لا عدمنـاك قائـداً وزعيماً !

قال: أرى أن يعلو رجل منا البيت الذي يجلس إلى جداره محمد ، ثم يأخذ هذه الرحا فيلقيها عليه ، فيقتله ، فيريحنا منه . فنهض عمرو بن جحاش النضري وقال : أنا لذلك .

قال سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه .

قال أحدهم . إني أراك يا سلام تجبن وتخور قواك في مواقف الحزم والحسم .

قال سلام : إنك لتعلم ، ويعلم معك بنو النضير جميعـاً ، أني لست بجبان ، وما كان الجبن لي بخلق ، ولكني أعلم وتعلمون

أن محمداً نبي مرسل ، وأن النـاموس الذي كان يأتي موسى بن عمران يأتيه ، وسوف يخبره بما أجمعتم عليه ، فإذا ما علم كان مصيركم مظلماً ، وقد علمتم ما حدث لإخوانكم من بني قينقاع عندما نقضوا عهدهم معه ، فقد كاد والله أن يفنيهم لولا تدخل حليفهم عبد الله بن أُبي ورجائه لمحمد ، وانتم تعلمون أن بني قينقاع أكثر منكم عدداً ، وأشد منكم بأساً ، وأقوى منكم شكيمة ، وأنا لكم ناصح أمين ... يا قوم إياكم والغدر ، فإن عاقبة الغدر وخيمة .

قالوا : ما رأينا كاليوم جبنـاً وذلاً ، أنفلت الفرصة وقد واتت ؟ أنترك الانتقام لإخواننا من بني قينقاع وقد أصبح في متناول أيدينا ؟ إنك لتبالغ يا بن مشكم في خوفك من محمـد وأصحاب محمد .

قال سلام : وإنكم لتشتطون في عداوتكم ، وتبالغون في مقدرتكم ، وتذهبون بعيداً في ثقتكم بأنفسكم ، وقد نصحت لكم ، وهذا كل ما أستطيع عمله من أجلكم .

قال عمرو بن جحاش : لا تلتفتوا إلى ما يقوله هذا ، فإن حبه لمحمد ودين محمد قد بان وظهر ، ولم يعد باستطاعتـه أن يخفي ذلك بعد أن رأى أن حياة محمد قد باتت في خطر .

قال سلام : لا تغرنكم مقالة هذا ، فإنكم تعلمون عداوتي لمحمد ، وإنكم لتعلمون أن ما أقوله إنمـا ينبع من حبي لكم

وخوفي عليكم ، وأما أنت يا عمرو بن جحاش فإني أخشى أن تكون أشقى بني النضير فتجلب لهم الهلاك والفناء .

وصم القوم آذانهم فلم يستمعوا للقول النصيح ، وعطلوا عقولهم فلم يستطيعوا أن يميزوا بين التصرف الخاطىء والتدبير الصحيح ، وصمموا على المضي في كيدهم وغدرهم .

وتهيأ عمرو بن جحاش لتنفيذ المؤامرة ، وحمل الرحا إلى سطح البيت الذي يجلس إلى جداره رسول الله – ﷺ – .

وتنزل جبريل على رسول الله بخبر بني النضير ، فقام وقال لأصحابه : لا تبرحوا حتى آتيكم ، وخرج مسرعاً إلى المدينة .

واقترب عمرو بن جحاش بالرحا من حافة السطح ، وأطل برأسه حيث يجلس الرسول ، يريد أن يتأكد أنه إذا رمى الرحا فإنما يرميها على الهدف الصحيح !

وفوجىء ابن جحاش بأن رسول الله قد غادر المكان .

وفوجىء بنو النضير الذين هرعوا ليشاهدوا نهاية محمد أنه قد غادر مكانه .

واضطرب القوم ، وتوجهوا إلى الصحابة الذين ما برحوا أمكنتهم وقالوا : أين ذهب أبو القاسم ؟

قال الصحابة : لن يبرح حتى يأتيكم ، لقد أمرنا أن ننتظره .

وسري عن المتآمرين قليلاً ، وعاد الأمل يداعبهم .

ومرّ الوقت ، وبدأ الأمل بالتلاشي ، وساورهم قلق شديد، فسأل أحدهم في حيرة : ما الذي حبس أبا القاسم ؟

قال لهم كنانة بن صوريا النضري : جاءكم ما حذركم منه سلام ، لقد جاءه الخبر من السماء بما هممتم به من الغدر .

قالوا ، وقد أصابهم الارتباك : اخفض صوتك حتى لا يسمعك أصحابه .

ولما طال غياب رسول الله ، داخل الصحابة الخوف عليه ، فقاموا وخرجوا من حصون بني النضير مسرعين ، فقابلهم رجل قادم من ناحية المدينة ، فسألوه عن رسول الله فقال : رأيته يدخل المدينة قبل قليل .

وأسرع الصحابة إلى المدينة ، ولما أقبلوا على رسول الله – ﷺ – قالوا : ما الخبر يا رسول الله ؟ قمت ولم تعد ؟

قال – عليه السلام – همت يهود بقتلي ، وأخبرنيه الله عز وجل .

ثم التفت إلى الجالسين وقال : ادعوا لي محمد بن مسلمة .

ولما جاء محمد بن مسلمة قال له رسول الله – ﷺ – : اذهب إلى يهود وقل لهم : اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر .



انتشر اللغط بين يهود بني النضير ، وكثر الكلام عن سبب مغادرة الرسول دون أن يذكر سبباً لذلك، وأخذوا يتساءلون : هل علم محمد بما بيتنا له من الغدر ؟ فإذا علم ، فما الذي سيفعله بنا ؟ هل يسكت عنا أم يحاربنا ؟ فإذا حاربنا فهل نستطيع أن نقف له ونصمد لحربه ؟

وركبت الهواجس بني النضير ، وألحت عليهم التساؤلات المتشائمة ، وما زالوا كذلك حتى رأوا غبـار فارس قادم من المدينة ، وما إن وصل إليهم وعرفوا أنه محمد بن مسلمة حليفهم في الجاهلية حتى أمطروه بالأسئلة :

ما أخبار أبي القاسم ؟
لماذا قام عنا دون أن يعلمنا ؟
هل غير رأيه ولم يعد يريد أن نساهم في دية العامريين ؟
أم أنه توقع أن نرفض طلبه في ذلك ؟

إننا على استعداد لأن ندفع ما يريد .. بل إننا قررنا أن ندفع الدية كاملة .

وعجب محمد بن مسلمة من كذبهم وضلالهم ، وكان بوده لو قال لهم : مـا كان أغناكم عمـا أنتم فيه لو أنكم وفيتم ولم تغدروا ، ولكنه ما جاء لعتاب ، بل جـاء برسالة من رسول السماء ، فقال لهم : إن رسول الله قد علم بغدركم ، وهو يأمركم أن تظعنوا من بلاده .

قالوا : يا محمد بن مسلمة ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس .

قال محمد بن مسلمة : تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود الجاهلية .

قالوا باستخذاء : إذن نرحل عن بلادكم كما طلب أبو القاسم .

★ ★ ★

وبدأ بنو النضير في التجهز للرحيل ، وفرحوا أنهم نجوا بجلودهم وأموالهم ، وقد ظنوا أن رسول الله سوف يستأصلهم بسبب تآمرهم عليه وهمهم بالغدر به .

ولكن رأس النفاق عبد الله بن أُبي أرسل إليهم يقول : يا بني النضير ، لا تخرجوا ، فإن معي من العرب وممن انضوى إلي من قومي ألفين ، وبنو قريظة معكم ، وحلفاؤكم من غطفان معكم ؛ فاثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم .

وطمع حيي بن أخطب بما قاله رأس المنافقين ، وأخبر قومه أنه لن يخرج ما دام هؤلاء سيقفون إلى جانبه .

قال له سلام بن مشكم : والله يا حيي لقد فتنتك نفسك ، فإن قول ابن أبي ليس بشيء ، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة

حتى تحارب محمداً ، فيجلس في بيتـه ويتركك ، ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظي أن يمدكم فرفض أن ينقض العهد مع محمد ، وقد رأيت أنه وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهـد وحصروا أنفسهم في صياصيهم (حصونهم) ، وانتظروه فجلس في بيتـه ، وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمـه ، فإذا كان ابن أُبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم ، فكيف نقبل قوله ؟

قال حيي : إليك عني يا بن سلام ، لقد أكثرت علي القول ، وما بي إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

قـال سلام : يا قوم ، لا تسمعوا لقول ابن أخطب ، فقد اعمته عداوة محمد وأفقدته القدرة على تقدير المواقف ووزن الأمور ، ولا يغرنكم قول ابن أُبي عن أنفسكم ، والله لو كان صادقاً لمات دون ملكه الذي ذهب بقدوم محمـد إلى يثرب ، ولكنه جبن فنافق، ورجل هذا شأنه لا يؤمل منه نصر وعون، وأما قريظة فقد علمتم أنهم خافوا محمداً وتمسحوا بالتمسك بالعهد معه ، وأما ما يدعيه ابن أُبي من نصرهم لكم فإنمـا هو أوهـام يمنيكم بها وسراب يلوح به لكم ، فلا تغروا بذلك ، وأما غطفان فأعراب لا يهمهم سوى النهب والسلب فإن رأوا أنكم تُهزمون وأن لا طاقة لكم بمحمد ، خلوا بينكم وبينه وأسلموكم لسيوفه

تبيدكم ولجيشه ليستولي على أموالكـــم ويسبي نساءكم ، يا قوم اجعلوا جبنها بي ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واقبلوا مـــا عرضه عليكم محمد .

وذهبت صرخات ابن مشكم في الهــواء ، وأبى حيي بن أخطب إلا محاربــة رسول الله ، والتفت إلى قومــه وسألهم : ماذا ترون فيما نحن فيه ؟

قالوا بلسان واحد : أمرنا لأمرك تبع ، ولن نخالفك .

عنــد ذلك أرسل حيي إلى رسول الله – ﷺ – يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولمــا وصل جواب حيي إلى رسول الله كبّر ، وكبّر المسلمون ، وقدّم رسول الله رايتــه إلى عليّ بن أبي طالب ، وسار المسلمون إلى حصون بني النضير وأحاطوا بها .

وما إن رأى يهود جيش المسلمين حتى بادروا حصونهــم فاعتلوها ، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل وبالحجارة ، وكانت معنوياتهم مرتفعة لمــا ينتظرونه من نصر ابن أبي ومن معه من قريظة وغطفان !

وأرسل لهم رسول الله من يقول لهم : يقول لكم رسول الله – ﷺ – اخرجوا من المدينة .

فأجابوا : الموت أهون من ذلك .

وأحكم الجيش الإسلامي حولهم الحصار .

ومرت الأيام ولم يأتهم ما وعدهم ومناهم به رأس المنافقين عبدالله بن أُبي .

وخيب إخوانهم من بني قريظة آمالهم حين قرروا اعتزالهم

وخانهم حلفاؤهم من غطفان وخلوا بينهم وبين المسلمين .

وبدأ الفزع يتسرب إلى قلوبهم ، وانتابهم من الخوف والهلع والجزع ما لم يُر مثله ، وأحاطهم الرعب من كل جانب .

وأسقط في أيديهم ، وأخذت عواقب نكثهم العهود ، وغدرهم برسول الله تقض مضاجعهم ، وباتت طيوف النهاية الرعيبة تلاحقهم .

وما راعهم وهم في حالهم هذا إلا دخان عظيم يغطي الأجواء ، ونيران ملتهبة تلف حصونهم ..

وهرعوا ينظرون ، فإذا بالمسلمين قد بدأوا في حرق نخلهم ؛ ففزعوا لذلك ، وصاحوا من على أسوارهم : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟!

والتفت بعض الصحابة إلى انفسهم وتساءلوا : نعم ، كيف نفعل هذا ؟

قال أحدهم : إنما نفعله لأن فيه نكاية بهم وإرغاماً لأنوفهم ،

وإنا من بعد لم نحرق إلا قسماً ضئيلاً لنجبرهم على التسليم ، ولولا أن الله راض عن هذا لما أمر به رسول الله .

وجاء رجل من المسلمين فقال : لقد أنزل الله رداً على مزاعم يهود وعلى ما أنتم فيه من حيرة .

قالوا بلسان واحد : وماذا قال ربنا في شأن إحراق النخيل وقطعه ؟

قال : يقول تعالى : « مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (١) » .

قالوا بلسان واحد : الحمدلله ، لقد علمنا أن رسولنا لا يأمر إلا بخير .

ودارت الأرض بيهود بني النضير ، وهرعوا إلى زعيمهم حيي بن أخطب وأحاطوا به ، وأمطروه بالأسئلة حول مصيرهم .

قال كنانة بن صوريا : ها قد مضى علينا في الحصار خمسة عشر يوماً ، فأين نصر ابن أبي الذي زعمت ؟

قال سلام : لقد نصحت لك يا بن أخطب فجعلت كلامي خلف أذنك ، وها نحن نذوق وبال ما فعلنا ونحصد نتائج غدرنا .

قال حيي وهو ينظر إلى الأرض مطرقاً مهموماً : ما أصنع؟

(١) الحشر : ٥

(٧)

ما أصنع ؟ إنها ملحمة كتبت على بني إسرائيل !

قال سلام : إنها كلمة تعودتم أن تقولوهـا كلما وقعتم في شر أعمالكم .

قال حيي : يا سلام سبق السيف العذل ، أرسلوا إلى محمد من يعلمه أننا نوافق على الجلاء من ديارنا على أن لنا من أموالنا مـا حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح) .

ووافق رسول الله .

وجلا بنو النضير عن المدينة .

فمنهم من جلا إلى خيبر .

ومنهم من جلا إلى أذرعات الشام .

وتطهرت مدينة الإسلام من شرورهم وأحقادهم .

ولم يُسلم منهم سوى يامين بن عمير وأبو أسعد بن وهب .

★ ★ ★

وعاد الجيش المنتصر إلى المدينة .

وتحدث الصحابة – رضوان الله عليهم – في أثناء عودتهم بما جرى لبني النضير ، فقال أحدهم لأخيه : اقرأ علينا ما نزل من القرآن في قصة تحريق نخل بني النضير .

قال آخر : لقد نزلت سورة كاملة فيما حدث لبني النضير ، اسمها سورة الحشر[1] .

قال : ألا تقرأ علينا ما تيسر لك منها ؟

وأخذ الصحابي الجليل يتلو

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝ ﴾[2]

واستمر الركب سائراً في طريق العودة ، واستمر الصوت النديّ يتلو هذه الآيات من سورة الحشر .

---

(١) كان ابن عباس - رضي الله عنه - يسمي هذه السورة سورة بني النضير .

(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحشر .

قال الأعرابي الذي استأجره أبو سفيان لقتل رسول الله وهو يعلن إسلامه :

« والله يا محمد ما كنت أفرق من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفتُ ، ثم اطّلعتَ على ما هممتُ به، فوالله ما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان » .

محاولة أبي سفيان بن حرب

كانت لقريش مكانة مرموقة بين قبائل العرب .

وكان لبني عبد مناف مكانتهم الرفيعة في قبائل قريش .

وكان لبني هاشم المكانة السامية في بني عبد مناف .

هذه هي المعادلة القبلية التي كانت سائدة عندما أرسل الله رسوله بالدين الحنيف ، لذا فقد وقف أبو سفيان بن حرب من الدين الجديد في بداية أمره موقفين متباينين :

كان يشعر بالاعتزاز بهذا الحدث الذي أكد منزلة بني عبد مناف بين قبائل قريش ، وكان في الوقت نفسه يشعر بالحسد والغيرة لأن هذا الشرف العظيم الذي حازه بنو عبد مناف كان من نصيب أبناء عمه من بني هاشم ولم يكن من نصيب ذويه من بني عبد شمس .

يبين هذا الشعور ما دار بين أبي سفيان وأبي جهل بن هشام

من حديث عندما مرّ بهما رسول الله - ﷺ - وهما جالسان في فناء الكعبة ، فقد قال أبو جهل مشيراً إلى رسول الله : هذا نبيكم يا بني عبد مناف !

قال أبو سفيان وقد امتلأت أوداجه حمية وفخراً : وتعجب أن يكون منا نبي ؟ فالنبي يكون فيمن أقل منا وأذلّ !

واستطاع أبو جهل أن يتجاوز هذه الغضبة من أبي سفيان وأن يعمل على كبتها ودفنهـا عندما استدرك قائـلاً : ولكن الرسول ليس من بني عبد شمس يا أبا سفيان !

وتنفس أبو سفيان بحرقة ، وقال والأسى يملأ نفسه : نعم يا أبا الحكم ، لقد كنت أرجو أن يكون من بني عبد شمس .

قال أبو جهل بلؤم وخبث : لا أظنك يا أبا سفيان ، وأنت سيد في قريش ، ترضى أن تتبع رجلاً يتيمـاً من بني هاشم ، ماذا يقول القرشيون عنك إذا رأوك تسير في إثر محمـد وتتبع خطوه ؟

قـال أبو سفيان : إن محمداً فينـــا لكريم الخلق ، وسيط النسب ، ما جربنا عليه كذباً قط .

قال ابو جهل ، وهو يواصل شدّ أبي سفيان عن طريق محمد: وهل ترضى لنفسك أن تكون تابعاً يا أبا سفيان ؟ إنك لم تزل فينا سيداً مطاعاً ، ولم تزل بنو عبد شمس في قريش صاحبـة

القيادة والحرب ، فهل تعمل بنفسك على نزع هذه المكرمة من أسرتك لتضيفها إلى مكارم بني هاشم ؟ إنك لأنت العاقل فينا ، ولا أظنك تنقاد لفتى من بني هاشم .

قال أبو سفيان ، وقد وقع في شباك أبي جهل : إن النبوة شرف ما بعده شرف ، ولا أرضى أن يحوز هذا الشرف بنو هاشم دوننا .

قال أبو جهل : صدقت يا أبا سفيان ، لن ترضى بنو عبد شمس أن تكون النبوة في بني هاشم ، ولن يرضى قومي من بني مخزوم ذلك ، لقد ذهب بنو هاشم بجل مكارم قريش فرضينا ، أما هذه فلا نرضى بها أبداً .

قال ابو سفيان : نعم ، لن نرضى بهذا أبداً .

وأسرع أبو جهل فاستغل غضبة أبي سفيان وقال : وما موقفك إذن من الدين الجديد ؟

فيرد أبو سفيان بحزم : المعارضة والعداء والصدّ والمقاومة ما حييت .

قال أبو جهل ، وهو يحاول أن يخفي ما انتابه من فرح شديد وسعادة غامرة : هذا هو العقل الراجح يا أبا سفيان ، هذا ما كنت أرجو أن أسمعه من سيد بني عبد شمس ، نعم لن

يلقى محمد منا إلا ما يكره ، ولن يجد بنو هاشم منا إلا مـــا يسوؤهم .



كان أبو سفيان سيد بني عبد شمس ، وكان لبني عبد شمس في قريش القيادة الحربية ، فكان موقع أبي سفيان في المجتمع القرشي موقعاً هاماً ، فكان محط انظار سادة قريش وشبابهم .

ولكن هذه القيادة الحربية ما كانت لتشغل أبا سفيان عن شيء آخر له في حياته وحياة قريش أهمية كبرى ، ذلك الشيء الهام هو التجارة ، واكتساب المال ، وما يتبع ذلك من تنقل في شتى البلدان ، وتعرف على مختلف المجتمعات خـارج جزيرة العرب .

فأبو سفيان تاجر يحرص على تجارته الحرص كلـــه ، فهي مصدر هذا الثراء العريض الذي يرفل فيه ، وهي بالإضافة إلى نسبه العريق ، سبب لمـــا يتمتع به من احترام المجتمع القرشي وتقدير القبائل المحيطة بمكة والمتعاملة معها .

وأبو سفيان لا يترك ماله للآخرين يتاجرون له به ، ويقدمون له أرباحه وهو جالس في مكة لا يغادرها ، كما يفعـل كثير من سادة قريش ومن أثريائها ، بل يباشر تجارته بنفسه ، ويشرف أيضاً على تجارة قريش في كثير من حملاتها التجارية التي اشتهرت

بها حتى ذكرها الله في القرآن الكريم وامتن بها على قريش ، فقال جل من قائل :

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (1)

وأبو سفيان بعد هذا وذاك رجل محب لقريش ، حريص على وحدتها وألفتها ، يتبدى ذلك كثيراً في تصرفاته في الأحداث التي كانت تحدث في مكة بين قبائل قريش نفسها ، وبينها وبين القبائل الأخرى ، ففي كل هذه الأحداث كان موقف أبي سفيان موقف المحب لقريش ، الحريص على سلامتها، والمضحي بكل شيء في سبيل ألفتها ووحدتها .

لهذه الأسباب كلها لم يظهر أبو سفيان عداوة شديدة لمحمد أو مقاومة ظاهرة للدعوة الإسلامية الناشئة في مكة ، ولولا ما كان يمارسه عليه زعماء مكة من ضغوط لما شارك حتى في هذه الوفود التي كانت تفد على أبي طالب تطالبه بأن يكف محمداً عن عيب آلهتهم وآبائهم وعاداتهم .

ولم نسمع عن أبي سفيان أنه وقف مواقف كالتي وقفها أبو جهل وأضرابه من سادة قريش في إيذاء الرسول والذين آمنوا معه ، حتى وقعت معركة بدر وأصيب فيها من أصيب من سادة قريش وفيهم ابنة حنظلة ووالد زوجه هند ؛ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

(1) قريش ١ - ٤

لقد بقي أبو سفيان يتخذ جانب الملاينـة حتى قبيل معركة بدر ، فقد أرسل إلى أشراف قريش من الذين يتولون قيـادة الجيش الخارج لحماية قافلته التجارية أن يرجعوا عن قتال المسلمين متخذاً من نجاة القافلة ذريعـة لصدهم عن الحرب ، وكفهم عن القتال ، يدفعه إلى هذا الموقف حدبه على قريش وحبه لهـا وخوفه أن يلتقي الطرفان فيقتل بعضهم بعضـاً ، وفي جيش المسلمين كثير من أبناء قريش الذين أسلموا .

إذن فقد غيرت نتائج المعركة في بدر من موقف أبي سفيان، وأشعلت في قلبه نار الحقد والبغضاء بعد أن رأى ما آلت إليه مكة التي لم تدع الحرب بيتاً فيهـا إلا وفيه من بدر مصائب وأحزان .

لقد وجد أبو سفيان نفسه بعد بدر سيد قريش بلا منازع ، وألقت إليه قريش مقاليد السياسة والحرب وأوكلت إليه مهمة الأخذ بثأر من أصيب في بدر .

أسرع أبو سفيان فحزم أمره على الانتقام ، فأعد لهـذا الأمر عدته من المال والرجال والسلاح ، وما إن حال الحول ودار العام حتى كان أبو سفيان يتجه بجيش قريش من مكة إلى المدينة ، فالتقى الطرفان في أحد ، ونال أبو سفيان وجيشه من المسلمين فقتلوا أعداداً تقارب ما قتل منهم يوم بدر .

وعلى الرغم مما بدا للناس من أن أبا سفيان قد أدرك ثأره في

أحد إلا أن أبا سفيان نفسه لم يرضَ عن هذه النتيجة كل الرضا، فقد قتل في أحد من المشركين عدد كبير ، ولم يهزم المسلمون كما أراد هزيمة تامة ، ولم يزل رسول الله ورؤوس أصحابه على قيد الحياة يواصلون الطريق للقضاء على زعامـــة قريش الوثنية ، ويعملون لذلك آناء الليل وأطراف النهار . .

لهذا وقف أبو سفيان في أحد يوعد المسلمين بلقـاء آخر من العام المقبل ، وأعلن ذلك على الملأ حتى يسمعه جميع الناس .

هذا ما أعلنه أبو سفيان ، أما ما أسره في نفسه ، ولم يُطلع عليه أحداً من الناس ، فهو قراره بقتل محمد – ﷺ – غيلة ، ذلك لأنه رأى أن المسلمين لا ينتهي أمرهم إلا بموت محمد قبل أن يستفحل أمره ، وتمتد دعوته ، وينتشر دينه .

هذا ما شغل أبا سفيان وهو عائد من معركة أحد ، وهذا ما عمل له منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها إلى مكة ، فقد أخذ يبحث عن رجل جلد صلب يقوم بهذه المهمة ، ويكفي بذلك قريشاً شرّ القتال الذي لا تنقضي معركة من معاركه إلا وتنتقص من قريش رجالاً ومـــالاً ، وتعمل على ضعضعة مركز قريش ومكانتها بين قبائل العرب .

***

لم يعـد أبو سفيان قادراً على أن يطرد من تفكيره فكرة

اغتيال الرسول ، فهي تلح عليه في يقظته وفي منامه ، وتتابعه في ذهابه إلى مجالس قريش وفي إيابه منها ، لقد أصبحت هذه الفكرة شغله الشاغل وهمه الأكبر ، لأنها في ظنه واعتقاده المخرج الوحيد من هذه الحروب التي أكلت شباب قريش وأفنت شيوخها ، لذا فقد قرر أن ينفذ فكرته ويريح أعصابه ، فوقف في مجلس من مجالس قريش في فناء الكعبة وقال : يا معشر قريش ، يا حلفاء قريش ومواليها ، أيها الناس ، لقد شغلنا محمد عن كل شيء حتى عن أنفسنا وأهلينا ، فهل لهذا الأمر من مخرج تقترحونه وتتعاهدون على تنفيذه ؟

قال الحاضرون بلسان واحد : ليس لها يا أبا سفيان إلا الحرب ، لقد أصبنا منهم يوم أحد وكدنا أن نفنيهم ونقتل محمداً ، وإنا لنرى أن معركة أخرى كمعركة أُحد كفيلة بأن تنهي أمر محمد وتقضي على أصحابه .

قال أبو سفيان: وأنى لكم أيها الناس معركة كمعركة أحد؟، لقد كانت معركة أحد فلتة ، وما أظن أنكم ستصيبون مثلها من محمد وأصحابه ، وما أظنهم إلا قد حنقوا عليكم وتعاهدوا على الانتقام منكم ، وإني أرى أن نجرب طريقاً آخر غير الحرب ، وأن نجعل الحرب آخر ما نلجأ إليه .

قال سيد من السادات : لا مهادنة مع الذين قتلوا آباءنا وأبناءنا !

قال أبو سفيان : ليس طريق المهادنة أردت ، إنما أردت طريقاً يجنبنا الحرب وينصرنا على المسلمين .

قالوا : أنت يا أبا سفيان سيدنا وقائدنا ، وقد قلدناك أمورنا ، وأسلمنا لك قيادنا فانظر ماذا ترى ، وستجدنا لك طائعين ولأمرك منفذين .

قال أبو سفيان : أرى أن نرسل إلى محمد من يقتله غيلة ، فإن محمداً يمشي في الأسواق ، فإذا قتلناه انكسرت قلوب أصحابه وأصابهم الوهن ودخلتهم الهزيمة وذهبت ريحهم .

قالوا : أشرت بالرأي .

قال : فمن لهذا الأمر أيها الناس ؟ من رجل يسير إلى محمد في مدينته فيقتله ويريحنا منه ؟

قال أعرابي من الحاضرين : أنا لها يا أبا سفيان ، أنا لها أيها القوم ، لقد وجدتم أجمع الرجال قلباً وأشده بطشاً وأسرعه شداً .

قال أبو سفيان : إليّ أيها الرجل .

واقترب الأعرابي من أبي سفيان ، فأخذه من يده ، وانصرف به عن الناس ، حتى إذا أصبحا وحيدين قال له أبو سفيان : ما عندك لهذا الأمر ؟

قال الأعرابي : إن أنت أعنتني خرجت إلى محمد حتى

أغتاله ، فإن معي خنجراً مثل خافية النسر ، أذهب إليه وحدي ، فإني هادٍ بالطريق خرّيت ، فإذا أتيته وضعت خنجري في صدره حتى أقتله .

قال أبو سفيان وقد اطمأن إلى الرجل : أنت صاحبنا ، إنك لها ، وإني مزودك ببعير ونفقة ، فاطو أمرك حتى عن أقرب الناس إليك ، فإن هذا الأمر لا يصلح له إلا الكتمان الشديد .

وانصرف الأعرابي لإعداد أمره وتهيئة شأنه ، وانصرف أبو سفيان إلى منزله وقد اطمأنت نفسه إلى ما وصل إليه ، فقد وجد رجلاً من غير قريش يستعد لقتل محمد نظير دريهمات وبعير ، إنها مهمة لا تكلفه شيئاً ، وهي تجنبه أشياء ؛ تجنبه التضحية برجل من قريش ، وهو الحريص على سلامة رجالها ، وتجنبه الحرب الضروس الثائرة بين قريش والمسلمين إذا ما أتم الأعرابي مهمته وفتك بمحمد .

ودخل أبو سفيان داره هادىء الخواطر ، منشرح النفس ، فأثار ذلك في زوجه هند الدهشة والاستغراب ، فلما سألته عن سبب ذلك ، وهو الذي أقسم الأيمان المغلظة على الانتقام ، فهجر من أجل ذلك الكلمة الحلوة والبسمة المشرقة ، فقال لها وهو يحاول أن يعيد إلى نفسه ما كانت عليه من تجهم وضيق : ليس هناك من جديد أخبرك به ، وليس هناك من سبب يدعو

إلى الانشراح ، وما رأيت ، يا هند ، إلا سراباً ولا أحسست إلا وهماً ، وكيف تهدأ لي نفس وقد قتل محمد الولد وابن العم ؟ وكيف يطمئن لي قلب ومحمد لا يزال في المدينة يعد لحربنا واستئصالنا ؟!

وسكتت هند ، وسكت أبو سفيان ، وإن كان خياله لا يزال مع ذلك الأعرابي الذي انطلق ببعيره يطوي الصحراء ليصل إلى المدينة ليقتل محمداً ، إن أبا سفيان يتابع ذلك الأعرابي خطوة خطوة ، ويعد معه أميال الصحراء ، ويطوي معه أبعادها ، وينتظر على أحرّ من جمر الغضا ذلك الخبر الذي يحسب أنه آتية عما قليل ، ليقلب حزنه سروراً ويحيل اضطرابه استقراراً .

خمس ليالٍ قضاها الأعرابي ، صنيعة أبي سفيان ، وهو يحث بعيره ليصل المدينة وليسبق الأخبار ، فهو حريص الحرص كله على أن لا يصل شيء مما دار بينه وبين أبي سفيان ، أو مما دار بين أبي سفيان وبين قريش من تآمر على قتل الرسول ، فوصل المدينة كأسرع ما يمكن أن يصلها رجل مجد في سيره مبالغ في ذلك الجد ، فوصل المدينة صباح اليوم السادس من مغادرته مكة ، فكان أول ما عمله أن سأل عن رسول الله - ﷺ - ، فقيل له : إنك تجده يحدث أصحابه في مسجده .

وانطلق الأعرابي إلى المسجد ، فرأى جمعاً من الصحابة يجلسون في حلقة تحفهم السكينة ويخيم على مجلسهم الوقار ، يلتفتون بكل مشاعرهم وبكامل انتباههم إلى ما يقوله رسول الله ، وتبدو عليهم جميعاً لهفة غامرة وشوق شديد لحفظ ما يلقي عليهم من علوم الدنيا والآخرة .

والتفت رسول الله – عليه السلام – إلى هذا الأعرابي القادم من باب المسجد ، فقال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد .

وتنبه الصحابة لما قاله رسول الله – ﷺ – ، والتفتوا نحو باب المسجد ، وكلهم أخذ حذره حتى لا يصاب الرسول بأذى ، وتابعوا خطوات الأعرابي خطوة بخطوة حتى وصل إليهم ، ووقف على حلقتهم وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

قال رسول الله – ﷺ – : أنا ابن عبد المطلب .

وشعر الأعرابي برهبة وهو يحدث الرسول ، فقد هابه رغم أنه لا يهاب الرجال ، وارتعد منه وهو الذي لم يكن يرتعد لأشد المواقف هولاً وأكثرها رعباً ، وداخله من الجزع والخوف ما لم يحدث أن داخله مثله قط حتى إنه فكر في النكوص عما انتواه ، ولكنه ذمم نفسه وعاد فصمم على متابعة مهمته وتنفيذ غدره ، فانحنى على رسول الله – ﷺ – كأنه يريد أن يسر له بشيء ، فانتفض أُسيد ابن حضير وقفز من مجلسه وجبذ

الأعرابي من ثيابه وقال له بلهجة حازمة آمرة تنح عن رسول الله ، ثم دفعه بشدة وهـزه بعنف ، فسقط الخنجر الذي كان يخفيه تحت ثيابه ، فاضطرب الأعرابي ، وندّت عن الحاضرين أصوات الاستنكار والتوعد ...

والتفت أسيد إلى رسول الله وقال : صدقت يارسول الله ، إن هذا الرجل لغادر .

وأُسقط في يد الأعرابي ، والتفت يمنة ويسرة لعله يجد مخرجاً أو مهرباً ، ولكنه وجد الصحابة يحيطون به ، وأسيد بن حضير يقيد يديه ، فأدرك أنه قد أُخذ ، وأن الهرب لم يعد مستطاعاً ولا ممكناً ، فداخله رعب شديد وفزع قاتل ، وأخذ يصرخ بأعلى صوته : دمي .. دمي !

فقال له رسول الله – ﷺ – : اصدقني ما أنت ؟ وما أقدمك ؟ فإن صدقتني نفعك الصادق ، وإن كذبتني فقد اطلعت على ما هممت به .

قال الأعرابي : وأنا آمن ؟

قال عليه السلام : وأنت آمن .

وأخذ الأعرابي يقص على رسول الله حديثه مع أبي سفيان ، والصحابة يستمعون ويعجبون ..

قال أحدهم : ألم نعد أبا سفيان أن نلقاه في بدر من العام

المقبل ؟ أجبن عن لقائنا فلجأ إلى الغدر ؟

قال آخر : إن الكفر ضلال وظلام ، وهؤلاء الكفار لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة ، فلا تعجبوا ، يا إخوة الإسلام ، إذا ما غدروا وكرروا الغدر ، بل إنني أتوقع أن يحاولوا الفتك برسول الله ، ويكرروا المحاولة مرة ومرة ومرة ، لقد أعماهم كفرهم وأضلهم شركهم فلم يعودوا يأبهون لعقد عقدوه أو عهد أعطوه وسيبقى الكفر هكذا ما تعاقب الليل والنهار .

قال آخر : صدقت يا أخي فيما قلت ، سيحاول الكفار ولكنهم لن يستطيعوا أن ينالوا الرسول بشر لأن الله وعده بأن يحفظه من الناس، فليجمع الكفار أمرهم ويكيدوا كيدهم، فسوف يرد الله كيدهم إلى نحورهم وينقلبوا خاسرين .

وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أُسيد بن حضير أن يحبس الأعرابي عنده ليلته هذه ، وأن يأتي به إلى المسجد إذا أصبح .

ومرّ الليل بساعاته الطوال ، والأعرابي مقيد بقيده ، يقبع في ركن من أركان بيت أُسيد ، وأُسيد يقوم الليل ويقرأ القرآن ، وتابع الأعرابي أُسيداً في تلاوته ، فوقعت آيات القرآن في قلبه موقعاً ، فقد سمع كلاماً ما سمع مثله قط ، فعرف أن ما سمعه هو ما كانت قريش تقول عنه بأنه سحر يفرق

الأسرة والقبيلة ، ويقول عنه المسلمون بأنه كلام الله الذي يهدي الناس إلى سواء السبيل ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

فعلت هذه الآيات فعلها في قلب الأعرابي ، فقد شعر بالطمأنينة والسكينة، وود لو استمع إلى مزيد من هذه الآيات، لقد بدأ ليله بساعات طوال ، ولكنها بدأت تقصُر وتتناهى في القصر مع انسجامه بالتلاوة التي يسمع من أسيد حتى إن السويعات الأخيرة من الليل مرّت كلحظة خاطفة .

ونادى منادي الفجر ، فقام أُسيد إلى أسيره فاصطحبه معه إلى المسجد ليمثل بين يدي رسول الله ...

وتصارعت الأفكار في ذهن الأعرابي وهو متجه إلى المسجد ، يقول الرجل لنفسه : لقد أمّنني محمد ، وقد سمعت أعداءه في مكة يصفونه بالأمانة والصدق والوفاء ، فلا أظنه يرجع عن أمانه لي ، لقد رأيت في وجهه وسمعت من حديثه ما حببه إلى نفسي ، ولكن علي أن أنتظر حتى أمثل أمامه لأرى ما هو فاعل بي ...

وقف الأعرابي أمام رسول الله – ﷺ – ، فالتفت إليه الرسول وقال له : قد أمنتك فاذهب حيث شئت .

قال الرجل : سأشكر لك صنيعك ما حييت ، أنا حرٌّ في الذهاب حيث أشاء ؟

قال له رسول الله : أوخير لك من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

قال رسول الله : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

قال الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرقَ من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعُفت ، ثم اطَّلعت على ما هممتُ به ، فوالله ما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان .

فابتسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما سمع .

وابتسم الصحابة لما سمعوا .

وأقام الأعرابي في المدينة أياماً يتعلم مبادىء الدين ، وينهل من الكتاب الكريم ، ثم استأذن وانصرف إلى أهله وقد فاز بالحسنى .

* * *

لم يعد الأعرابي إلى أبي سفيان ، ولكن الركبان القادمين من المدينة حملوا إليه قصة الأعرابي وإسلامه ، فعرف المآل الذي آلت إليه مؤامرته ، فعاد إلى قريش وهو مغيظ محنق ، ولج في الخصومة وبالغ في العداء وأخذ يحشد الحشود لحرب الإسلام وأهله .

ولم يفلح أبو سفيان في غزوة الخندق ، بل انقلب خاسراً رغم ما حشده من جند قريش وحلفائها من الأعراب واليهود ، وعاد إلى مكة وهو لا يدري ما الذي يصنعه بعد أن مني بهذا الفشل الذريع .

وتتابعت الأحداث على أبي سفيان ، فلم يدر ما يصنع ، فقد أخذ أمر رسول الله يعلو ويشتد في العلو ، وأخذ الإسلام ينتشر ويتسع في الانتشار ، ولم يعد أمام أبي سفيان وأهل مكة إلا أن ينتظروا ما الله فاعل بهم ، ولم يبق أمامهم إلا انتظار الخطوة التالية التي سوف يخطوها الرسول ، لقد أفلت زمام المبادرة من أيديهم بعد غزوة الخندق وأصبح في أيدي المسلمين ، وقد عبر عن ذلك رسول الله - ﷺ - حين قال للمسلمين منصرفة من تلك الغزوة : لا تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم .

وجاءت الحديبية ، ووقعت قريش مع رسول الله - عليه السلام - صلحاً مدته عشر سنوات ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص من غدرها ، فنكثت ما عاهدت عليه ، وأخلت بالشروط التي وقعت عليها ، وحاول أبو سفيان أن يرتق ما فتقوا ، وأن يتلافى نتائج ما أحدثوا ، فذهب إلى المدينة محاولاً أن يغطي من غدرة قريش أو أن يمحوها إن استطاع ، ولكنه لاقى من المسلمين صداً ونفوراً ، ولم يستطع أن يقابل

رسول الله - ﷺ - ، فعاد إلى مكة كاسف البال مهموم النفس منكسر الفؤاد .

وجهز رسول الله جيشه لفتح مكة ، وسار به وقد بلغ تعداده عشرة آلاف ، لا يستطيع أن يقف لهم أحد حتى لو جمع لهم من في الجزيرة جميعاً ..

واستعبد القلق أبا سفيان ، واستبد به ، فلم يستطع أن يقر له جنب أو يغمض له جفن ، فكان يأخذ معه نفراً من سادة قريش ويخرج بهم إلى ظاهر مكة يتسقط الأخبار .

وما راعه إلا رسول الله وجيشه يحيط بمكة ، فأسقط في يده ، وأراد أن يتدارك قريشاً حتى لا تفنى بسيوف هذا الجيش الذي لا قبل لأحد به ، فهرع إلى رسول الله - ﷺ - ، ولما لم يجد طريقة ينجي بها نفسه ويحمي بها قريشاً سوى الإسلام ، أعلن إسلامه ، وأذعن للواقع ، وإن كانت نفسه لم تستقر على الإيمان ، وإن كان قلبه لا يزال في شك من نبوة رسول الله !

إن رسول الله الذي وسع حلمه الناس جميعاً طوى أبا سفيان جناحه ، وأخذ يتألفه على الإسلام ، ويحبب إليه الإيمان ، فأعطاه من هذه الألقاب التي يعشقها ما شاء ، فرسول الله يعرف حب أبي سفيان للمباهاة والفخر ، فجعل له منها يوم الفتح : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وحضر أبو سفيان حنيناً وهو ما هو عليه من تأرجح الإيمان، وندت من فمه كلمات تشي بما هو عليه من بغض للمسلمين وضيق بانتصاراتهم وحب لهزيمتهم، ولكن العطايا التي أغدقها رسول الله عليه وعلى بنيه من غنائم حنين فتحت مغاليق قلبه للإسلام، وبدأت هذه النكت السوداء التي ترنو على قلبه بالتلاشي، وبدأت نفسه تدخل في رحب فسيح، وبدأ قلبه يأنس للدين الجديد.

وفقد أبو سفيان عينه الأولى يوم الطائف، وفقد الثانية يوم اليرموك، وعاش في عهد الخلفاء الثلاثة مسلماً محباً للإسلام، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من حبه للزعامة وتلهفه على الرياسة، يود لو آلت إلى بني عبد شمس خلافة المسلمين وأسندت إلى واحد من بنيه إمارة المؤمنين.

وقبل أن يطوي أبا سفيان الموتُ شاهد الخلافة تنتقل إلى واحد من بني عبد شمس، فيتولاها ذو النورين عثمان بن عفان، وتوفي قبل أن يرى ابنه معاوية أميراً للمؤمنين.

إنّا لنحسد محمداً علىٰ النبوة حيث خرجت من بني هرون،
إنه لمرسل ، ويهود لا تطاوعني على هذا !!

اليهودي سلام بن أبي الحقيق

المحاولة السابعة

محاولة زينب بنت الحارث اليهودية

كان باستطاعة اليهود أن يكسبوا الدنيا والآخرة لو أنهم عقلوا واتبعوا ما أوصت به التوراة فآمنوا بما أُنزل على محمد ـ ﷺ ـ.

وكان بإمكانهم أن يكسبوا طرفاً من الدنيا ويبقوا في مساكنهم لو أنهم لم يدأبوا على نقض العهد الذي أعطوه لرسول الله وجماعة المسلمين.

ولكن ما جبلوا عليه من حب النفس وحسد الآخرين، وما تطلعوا إليه من الرغبة في السيطرة، وما اصطنعوه من الكبرياء المضلة، جعلهم يقفون في الصف المعادي للدين الحق من أول يوم دخل فيه الرسول إلى المدينة مهاجراً وبانياً.

* * *

كان اليهود يتوزعون على ثلاثة أماكن:

قسم منهم يخالط المسلمين في المدينة وهم بنو قينقاع .

وقسم ثان يسكنون حصوناً منيعة في ضواحي المدينة وهم بنو قريظة وبنو النضير .

والقسم الثالث ينتشرون في قرى بين المدينة والشام ، أهم هذه القرى وأكبرها خيبر .

وحاول اليهود أن يكتموا حقدهم وحسدهم ، واجتهدوا في إخفاء تحركاتهم ومؤامراتهم ، واصطنعوا اللطف واللين في حديثهم مع المسلمين ، وهم مع ما كتموا واجتهدوا واصطنعوا تداعبهم آمال عراض في القضاء على هذا الدين الذي جاء ليقضي على سلطانهم ويتسلم راية الزعامة الدينية من أيديهم .

ولكن الأمور سارت على غير ما أحبوا ، ثم جاءت أخبار بدر فحركت الأحقاد في صدورهم فنطقت بها ألسنتهم وترجمت عنها أفعالهم .

وعلم رسول الله بما يقوله بنو قينقاع وبما يبدونه من عداء لله ورسوله ، فذهب إليهم ووعظهم وذكرهم العقد الذين بينه وبينهم ، ودعاهم إلى الله ورسوله ، ولما رأى منهم صداً ونفوراً زجرهم ، فما كان منهم إلا قالوا بجفوة وغلظة : « يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا الناس !

ومع هذا الجفاء وهذه الغلظة ، إلا أن رسول الله اكتفى بما قاله لهم وانصرف .

ففرهم ما وجدوا من حلم رسول الله ، وظنوا أن هذا الحلم نابع من ضعف وناتج عن خوف ، فأخذهم الزهـــو واستولى عليهم الطيش،فاعتدوا على امرأة مسلمة وشدوا ثوبها، فصرخت مستنجدة فهب رجل من المسلمين فقتـــل اليهودي المعتدي ، فأسرع اليهود إلى المسلم فقتلوه ... عندئذ أصبح هؤلاء اليهود مصدر شرّ ومبعث فساد في المدينة ، فنهد إليهم رسول الله بالمسلمين وحاصرهم ثم أخرجهم من المدينة جزاء غدرهم وإفسادهم واعتدائهم .

وبدلاً من أن يكون هذا الحادث درساً وعظة لبقية يهود كما هو متوقع من قوم عقلاء ، إلا أنه لم يزدهم إلا حقداً ، فأخذت صدورهم تفور بالنقمة ونفوسهـــم تضطرم بالغضب ، وأخذوا يتربصون الفرص للإيقاع بالمسلمين .

وعندمـــا ذهب النبي إلى بني النضير يستعينهم في دية من قتلهما خطأً عمرو بن أمية الضمري حاولوا اغتياله بإلقـــاء الصخرة عليه ، فكان عقابهم كإخوانهم من بني قينقـــاع ، فأجلوا عن المدينة ، وآلت ديارهم وزروعهم إلى المسلمين ...

وسار بنو قريظة على سنة سابقيهم ، فغدروا بالمسلمين في أحرج الأوقات وأدقها عندما أحدقت الأحزاب بالمدينـــة ،

وضاقت على المسلمين الأرض وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظن بنو قريظة أن الفرصة قد واتت للقضاء على المسلمين ، فانضموا إلى الأحزاب وكتبوا نهايتهم بأيديهم . وكان انتقام المسلمين منهم رهيباً ، وهو على رهبته كان جزاء مساوياً لخطورة موقفهم ولبشاعة غدرهم .

وتجمعت فلول اليهود في خيبر ، فانضم حقد إلى حقد ، واجتمع حسد إلى حسد ، فاستعرت في قلوبهم نار البغضاء ، واستولى على نفوسهم حب الانتقام ، فبذلوا ذهبهم – على ضنهم به – وأغروا به الأعراب واصطنعوهم لحرب المسلمين .

وعلم رسول الله – ﷺ – بأمرهم ، فأسرع إليهم ، وجاءهم وهم سادرون في غيهم ، فنزل ديارهم ، وأحاط بحصونهم ، فقتل أبطالهم ، وفتح حصونهم ، وأنهى أمرهم قبل أن يجمعوا كيدهم ويتموا مكرهم وينفذوا غدرهم .

وعلى الرغم من هذا التاريخ المفعم بالغدر فقد عاملهم رسول الله – ﷺ – بالسماحة والكرم ، فتركهم في أرضهم وعلى زرعهم ، ولم يعمل فيهم السيف بما غدروا ، ولم يخرجهم من ديارهم بما نكثوا .

وتلبث المسلمون قليلاً في خيبر ، فقد أجهدتهم الحرب ، ومن حقهم أن ينالوا قسطاً من الراحة ، وقد كان عليهم فوق هذا أن ينظموا أمور خيبر من جديد ، فيعيدوا إليها الحياة

والحركة ، وقد فعلوا ، حتى أخذ المسلمون يردون أسواقها ، ويبتاعون من تجارها ..

* * *

كانت زينب بنت الحارث اليهودية قد فقدت في القتال الذي دار حول حصون خيبر أخاها مرحباً ، وكان فارس يهود ، وزوجها سلام بن مشكم ، وكان حامل رايتهم .

وكان لفقد هذين الرجلين الحبيبين إلى قلبها أثرٌ صاعق على نفسها ، فأخذت تفكر وتدبّر ، وتبحث عن وسيلة تنتقم بها لهما من المسلمين .

قالت تحدث نفسها : لو استأجرت رجلاً جلداً من بني ديني ، وبذلت له كل مالي على أن يقتل لي رجلين من كبار أصحاب محمد لأدركت ثأري وشفيت صدري ... ولكن هل أجد من بين اليهود من يقبل هذه المهمة ؟ هل أجد من بينهم من يسعفني فيقتل من هؤلاء المسلمين رجلين بمن فقدته من الأحبة ؟ .. لا ، لا ، لا أظنني أجد من بين اليهود مسعفي ، فإن الهزيمة التي حلت بنا أفقدت الرجال الثقة بأنفسهم ، وجعلتهم يهابون حتى من كلاب الحيّ ! لا خير في مهزوم لساعته ... فلأبحث عن رجل من الأعراب ، ففيهم الفاتكون والذؤبان والصعاليك، وبريق ذهبي يفقدهم التفكير في العواقب،

فيرمون أنفسهم في المهالك ، ويفعلون ما يؤمرون ... ليت لي بأعرابي حاضر استأجره لمأربي وأسخّره لتنفيذ طلبي ... ولكن ، ألا يمكن أن يغدر بي ، فيأخذ مالي ، ويفشي سرّي ، فأذهب لا صدراً شفيت ولا مالاً حفظت ولا نفساً وقيت ولا ثأراً أصبت ... إن صدري ليمتلىء حقداً ويغلي غضباً ، وإن نفسي لتتقطع حسرات على الأحبة الذاهبين ، مرحباً وابن مشكم ، لقد فقدت بفقدهما النصير والمشير ، ولم يبق لي من معين أو مسعف في هذه الدنيا !

وصمتت زينب برهة تلتقط فيها أنفاسها وتصل حبال تفكيرها ، ثم قالت لنفسها : ليس لهذا الأمر سواي أنا ، نعم ليس له سواي أنا زينب بنت الحارث ، لا بد أن أقتل بيديّ هاتين رجلين من أعلام المسلمين وصناديدهم ، نعم أقتلهم بيدي ، فإذا لم أكن أحسن الضرب بالسيف أو الطعن بالرمح أو الرمي بالسهم ، فإني أحسن استعمال سلاح آخر أشد فتكاً ، سلاح النساء على مرّ العصور ، سوف أقتلهم بالسم ، نعم بالسم ألقيه في طعامهم أو شرابهم ...

لقد جعلت هذه الأفكار من زينب كتلة من الغضب وتنوراً من الحقد ، وأخذت تبحث عن الطريقة التي تسم بها طعام المسلمين أو شرابهم ، وذهبت تراقب مضاربهم لعلها تجد منفذاً إليها ، فما وجدت ، فالمسلمون أبداً متنبهون ، والحيلة لا

تجوز عليهم ، والرشوة لا تعرف طريقها إلى نفوسهم ...

ما العمل إذن ؟ هل تتخلى زينب عن ثأرها ؟ إن هذا لن يكون ، فلو أرادت هي ذلك فالشيطان الذي تلبسها لن يتركها ، وسيبقى يوسوس لها ، ويزين لها ، ويقترح عليها حتى تمضي في طريقها الوعر إلى نهايته ...

وقادتها أفكارها إلى اصطناع طريق النساء، أليست بامرأة؟ وهل يريب أحداً أن تتصل بنساء المسلمين وتتودّد إليهم ؟

ودخلت زينب على صفية عمة رسول الله ، وأبدت لها خضوعاً ، وكشفت لها عن ذات نفسها – كما زعمت – وأنها تميل إلى المسلمين ، ويملأها الندم والأسف على ما أقدم عليه اليهود من حرب محمد والمسلمين ، وأخذت تبالغ في ذم أولئك الذين كانوا سبباً في إشعال هذه الحرب ، وتقول : ما الذي جنوه من وراء هذه الحرب غير قتل الأحبة وخراب الديار ؟ ألم يكن لهم في السلم أمان وفي الصلح نجاة ؟ إن الذي حدث قد مضى ولا ينفع فيه الملامة والعذل ، وعلينا أن نعيش معاً كأننا نولد من جديد ...

وتابعت زينب حديثها لصفية ، وبالغت في تلطفها حتى أدْخلت الطمأنينة على قلبها ، عندئذ خطت خطوة واسعة نحو هدفها ، فألمحت أنها تود أن تقدم هدية عنواناً على إخلاصها

واحتفالاً بعودة السلام إلى خيبر ، وعندمـــا وصلت إلى هذه المرحلة قفز إلى خاطرها أمر جديد ، ملأ قلبها سروراً وغبطة، لماذا لا يكون محمد هو الذي يُقتل بالسم ؟ إنه لأمر عظيم أن تصلي يا زينب إلى هذا الهدف، وأي هدف! وتلفتت إلى صفية، ورسمت على شفتيها ابتسامة حاولت جهدها أن تحيطها بالبراءة، وقالت : أود أن أقدم لرسول الله شاة مشوية مصلية احتفالاً بعودة السلام إلى ديارنا وسروراً بسيادة الوئام بيننا فأي جزء من الشاة يحب رسول الله أن يأكله ؟

قالت صفية : إنه لا يعدل بالذراع أي جزء آخر .

وخرجت زينب من عنـد صفيـة ، وهرولت مسرعة إلى بيتها ودخلت حظيرة الأغنـام ، ووقفت تنظر إلى أغنامهـا لتختار منها أحسنها ، ومرت على واحدة وثانية وثالثة ، ثم وقعت على شاة سمينة ، فأمسكت بلبتها وقادتها أمامها وهي تقول : هذه هديتي إلى محمد ، هذه هدية ستكون حديث الناس في خيبر ثم في الجزيرة ، وسوف ينتقل حديثها جيلاً بعد جيل ، وسيعرف اليهود أني ابنتهـم التي حفظت عهدهم ونفـذت أمنيتهم ...

وتمنعت الشاة في يد زينب ، فشدتها وقالت لهـا : إنك لشاة طيبة ، وعلى حظ عظيم من الطيبة ، ألا يملؤك السرور إذ عرفت أنك ستدخلين التاريخ من أوسع أبوابه ؟ إنه البـاب

الذي سيدخل منه الانتقام اليهودي إلى بناء الإسلام ليهدم ركنه الركين وعموده المتين ... إنك أيتها الشاة العزيزة رسولي إلى مرحب وابن مشكم، أبلغيهما أنني لم أنسهما ولم أفرط بحقهما، وأنني أخذت لهما بثأرهما، فلينام في قبريهما بأمان، ولتهدأ تلك الطيور التي تحلق فوق ذينك القبرين ... إنك أيتها الشاة العزيزة رسول الحقد والغضب إلى محمد، إنك رسول الانتقام الرهيب إلى هذا الذي قتل الزوج والأخ والأحبة من بني قومي، إنك الأداة التي سوف تفتك بعدو اليهود، وتنتقم لمجدهم الذاهب ونجمهم الآفل ...

ولم تكف زينب عن مخاطبة شاتها حتى وهي تذبحها وتسلخها وتحشوها بالسم الزعاف وتخص الذراعين بوافر من السم حتى يكونا أشد فتكاً وأسرع قتلاً ...

ووضعت زينب الشاة على النار وأخذت تقلبها رويداً رويداً حتى يختلط السم باللحم والعظم، وحتى تنضج كأحسن ما يكون النضج، وقالت وهي تقوم بهذا العمل بأناة وصبر ... ازدادي أيتها الشاة نضجاً حتى تزدادي إلى محمد قبولاً، وأنت أيتها الذراع، يا ذراع الأمل المحلق في سماء حياتي، كوني رسول الموت إلى هذا الذي يزعم أنه نبي مرسل، كوني رسول الموت الذي يثبت أحقية اليهود بالرسالة الخاتمة وبالدين الخالد، كوني رسول الموت الذي يثبت أنه لا أمة تستحق الخلود إلا

بني إسرائيل ، وأنه لا قوم يستحقون السيادة إلا أبناء هرون .

أيها الحقد الذي يملأ كياني ، أيتها الشاة التي امتزجت بالسم الزعاف ، لقد مزجتكما معاً وأنضجتكما بنار قلبي ولهيب كبدي ، فمازجا جسد محمد وافتكا به ... إن أي جسد مهما كان قوياً لا يقوى على هذا السم الذي خالط اللحم والعظم وبلغ في التركيز المدى ...

★ ★ ★

ولبست زينب أبهى حللها ، وحملت شاتها وقدمتها لصفية ، وتمنت عليها أن تقدمها لمحمد حتى يُسَرَّ بها ، ويعلم الجهد الذي بذلته في إعدادها ، والمهارة التي أفرغتها في شيِّها ...

وجاء رسول الله – ﷺ – إلى خباء صفية يرافقه صاحبه بشر بن البراء بن معرور – رضي الله عنه – فقدمت لهما الشاة ، فسأل عنها رسول الله فقالت صفية : إنها هدية ؛ فمد رسول الله – ﷺ – يده إلى الذراع فانتهش منها ، وتناول بشر عظماً فانتهش منه ، فلما ابتلع رسول الله لقمته ابتلع بشر ما في فيه ، فقال رسول الله – ﷺ – : « ارفعوا أيديكم ، فإن كتف هذه الشاة يخبرني أني نعيت فيها » . فقال بشر بن البراء : والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت ، فما

منعني أن ألفظها إلا أني أعظمتك أن أبغضك طعامك ، فلما أسغت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نعي .

وسأل رسول الله – ﷺ – عن مصدر الشاة ، فأخبرته صفيه ، فأمر بإحضار المرأة إليه .

وعلم يهودي بانكشاف أمر زينب ، فأسرع إلى بيتها ليحذرها ، فوجدها جالسة تناجي نفسها وتقول : الآن يأكل محمد من الشاة ، بل من الذراع ، إنه لن يأكل لحماً بل سيأكل سماً وحقداً ، إنه لن يلبث أن يموت فأكون قد أدركت ثأري وثأر قومي ...

قال لها ابن دينها : يا زينب فشل تدبيرك ، وكشف محمد أمرك ، ولن يلبث أصحابه أن يداهموا بيتك ويأخذوك إليه .

قالت وقد أذهلها النبأ : أمتأكد أنت أن محمداً لم يمت ؟ يا ضيعة العمر إن كان ما تقوله صحيحاً .

قال اليهودي : ما قلت لك إلا الحق والصدق ، فتواري عن الأنظار قبل أن يدركوك .

هزت رأسها وقالت : هون عليك يابن الأسباط ، ولا تخف على زينب فعندها الجواب الحاضر ، ومحمد لا يقتل على المحاولة الفاشلة ... ولكني اقول : يا أسفى على مرحب وابن مشكم ،

لم أستطع أن أدرك ثأرهما فذهب دمهما هدراً..يا بن الأسباط، أنعي لك دين اليهود .. ولا أظن محمداً إلا صادقاً في دعوته ، ولكني أقول كما قال سيدنا سلّام بن أبي الحقيق: إن محمداً لمرسل، ولكنا نحسده على النبوة حين خرجت من بني هارون ، ولن نؤمن به أبداً .

وسمعا طرقاً على الباب ، فقالت : ها هم قد أتوا ، فدعني أخرج إليهم ، والبث مكانك حتى لا يظنوا بك الظنون إذا رأوك فيأخذوك معي ...

وفتحت الباب ، فقال لها الطارق : نريد زينب بنت الحارث .

قالت : أنا هي .

قال : فأجيبي رسول الله - ﷺ - .

ودخلت زينب على رسول الله - ﷺ - ، فقال لها : أسممت هذه الشاة ؟

قالت : نعم ، فمن أخبرك ؟

قال - عليه السلام - : أخبرتني هذه التي في يدي (يعني الذراع) فما أردت بذلك ؟

قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : إن

كان نبياً فلن تضره وسيُخبر ، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه.

ولما كان السم لم يقتل أحداً في الحال فقد تركها الرسول - ﷺ - تذهب لشأنها .

وخرجت زينب من مجلس الرسول وذهبت إلى بيتها .

لو لم تكن زينب يهودية لأسلمت في الحال ، فليس بعد الذي رأته من برهان على صدق رسول الله ، ولكنها سارت على سنن قومها وأهل دينها ، عرفت الحق وأعرضت عنه ، ثم أصرت على كفرها وأقامت عليه .

لقد بلغت سماحة النبي - ﷺ - مع هذه المرأة مبلغاً ، فلو كانت هذه السماحة مع غير اليهود لأثمرت وأينعت وآتت أُكلها ، ولكن هيهات ، فقد جُبلت يهود على جبلة لا تُلينها السماحة ولا تغيرها الحقائق مهما بلغت .

وانتشر السم في جسد بشر ، فلم يحتمله ، فمات شهيداً ...

وأمر رسول الله - ﷺ - بزينب فقتلت قصاصاً ،

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (1)

(1) البقرة : ١٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ

من الآية ٨٢ من سورة المائدة .

محاولة غورث بن الحارث

انسحبت قريش من غزوة الخندق وقد أيقن رؤساؤهـــا بفشلهم في مواجهة الجبهة الإسلاميـــة ، وانكمشوا في مكة ، وأخذوا يسعون في الصلح ويطلبون الهدنة ، وصدق فيهم قول رسول الله بعد انصرافهم من الخندق : « لا تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » .

وأسقط في أيدي يهود ؛ فقد رجع القرشيون إلى ديارهم ، وانسحب الغطفانيون إلى صحرائهـــم ، وأُفردوا والمسلمين في المدينة ليواجهوا عاقبة غدرهم ويذوقوا وبال أمرهم .

وعاد أعراب غطفـــان إلى صحرائهم دون أن يعوا درس الخندق ، ودون أن يروا في انسحابهم هزيمة توجب الخوف من المسلمين ، ودون أن يروا في المسلمين قوة تردعهم عن مؤامرتهم ومكائدهم .

وتجمعت فلول يهود في خيبر ، وقد أكل الحقد قلوبهـــم ،

وأعمى الغضب أبصارهم ، فأخذوا في الإعداد للانتقام من محمد وأصحاب محمد ، وانطلقوا بما أُوتوا من أموال طائلة يحاولون أن يجمعوا الحشود حولهم ، حتى إذا دنت ساعة اللقـاء كانوا أقوى عتاداً وأكثر نفيراً .

ولوحت يهود لقبائل غطفان بذهبها ، فأقبلوا عليهم ملبين مجيبين ، وأبدوا استعدادهم لمدهم بالرجال حتى يدركوا ثأرهم من محمد وأصحابه .

وعلم رسول الله – ﷺ – بتحركات يهود ونواياها، فأسرع إلى خيبر، فافتض حصونها وقتل زعماءَها، وكسر شوكة يهود، وجعلهم أحاديث !

ثم ترك المسلمون خيبر ، وقصدوا قبائل غطفان التي كانت تتجمع لنجدة يهود ، فلقوا جمعاً غفيراً من قبيلتي محارب وثعلبة الغطفانيتين ، وقد علموا بمقدمهم ، فاستعدوا لهم .

واصطف جيش رسول الله – ﷺ – قبالة العدو الغطفاني، وتحفّز الطرفان للقتال ، وجالت الخيل هنا وهناك ، ولكن قتالاً لم ينشب .

وبقي الجو مشحوناً بالتوتر ، وخاف كل فريق من الآخر ، فصلى رسول الله – ﷺ – بجيشه صلاة الخوف .

وتسمَّرت أعين الغطفانيين على هذا النظام البديع والأسلوب

الجديد الذي ليس لهم به عهد ولم يروا مثله من قبل ، فداخلهم من ذلك رهبة ، فلم يُقدموا على القتال ، واكتفوا بالوقوف في مراكزهم يرقبون ما يفعله المسلمون .

أرى رسول الله – صلوات الله عليه – العدو من نفسه وجيشه قوة ، ولما رأى أنه أخافهم وأفزعهم أمر أصحابه بالانسحاب والعودة إلى المدينة .

وانسحب الجيش الإسلامي تتبعه عيون من غطفان ليتأكدوا من أنه لا يخدعهم ، وأنه ينسحب فعلاً وأن طريقه إلى المدينه .

ولما وصل المسلمون إلى مكان ذي شجر أمرهم رسول الله بالنزول ، فانتشروا يستظلون بالشجر ويسلمون أعينهم للنوم ، ولجأ رسول الله إلى شجرة كبيرة معروفة في ذلك المكان باسم « ذات الرقاع » فعلق سيفه على غصن من غصونها ، واستلقى تحتها ليأخذ قسطه من الراحة ، فنامت عينه .

ويشاهد غورث بن الحارث ، أحد عيون غطفان ، هذا المنظر ، فيطمع أن ينال من المسلمين ، فيقول لأصحابه : ألا أقتل لكم محمداً ؟

قالوا : بلى يا غورث ، إنك إن فعلت فزت بإعجاب بني غطفان جميعاً .

قـال : بل إذا فعلت ذلك فزت بإعجاب من بالجزيرة جميعاً .

قالوا : دونك من تريد ، فإنا نراه نائماً تحت ذات الرقاع لا يحرسه أحد ، فأصحابه قد أخذهم التعب واستولى عليهم النعاس فناموا .

قال مزهواً : أنا لها ، أنا غورث بن الحـارث المحاربي ، سترون ما أصنع ، وسيسمع العرب بما أفعل ، فإنه سيكون لما أفعله شأن عظيم .

وتسلل غورث إلى حيث يرقـد رسول الله – ﷺ – ، وعندما وصل إليه ورأى سيفه معلقاً على غصن الشجرة تناوله وجرّده في وجه رسول الله ، فانتبه – عليه السلام – لحركة الرجل وصوت السيف ، فجلس ، ونظر إلى غورث نظرة المؤمن الواثق ، فقال غورث : مالي أراك هادئاً مطمئناً ، ألا تخافني وقد وضعت السيف فوق رأسك ؟

قال رسول الله بحزم وعزم : لا .

قال غورث : فمن يمنعك مني ؟

قال – عليـه السلام – بصوت هادىء واثق : الله يمنعني منك .

فارتعد الرجل ، واهتز السيف في يده ، وتراخت القبضة التي تمسك به ، حتى سقط على الأرض ، فتناوله رسول الله –

ﷺ - والتفت إلى غورث وقال له : من يمنعك مني ؟

قال غورث وقد ذهب الدم من وجهه: والله لا يمنعني منك أحد ، والله لا يمنعني منك أحد .

ووضع رسول الله - ﷺ - السيف جانباً ، وأمر غورثاً بالجلوس ، ودعا الصحابة الذين نبهتهم حركة غورث وكلامه ، وقال لهم مشيراً إلى غورث : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، واستيقظت وهو في يده صلتاً ، فقال : من يمنعك مني؟ فقلت: الله . فسقط السيف من يده .

قال أحد الصحابة : والله ما علمنا بنى غطفان إلا قوماً غُدراً ، وهذا مثال من غدرهم ، فاقتله يا رسول الله جزاء غدره .

فهب غورث واقفاً وأقبل على رسول الله وقال مستعطفاً : ملكت فأسجح[1] يا محمد وكن خير آخذ .

قال رسول الله - ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

قال غورث : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

فخلّى رسول الله - ﷺ - سبيله ، فانطلق إلى أصحابه .

* * *

(١) ملكت فأسجح : أي أحسن العفو وتكرم .

حدث كل هذا على مرأى من أولئك الغطفانيين أصحاب غورث ، فدُهشوا لما رأوا وعجبوا ، لقد دهشوا عندما رأوا غورثاً ، وهو المحارب الصلب والفارس المعلم، يرتعد أمام رسول الله ويسقط السيف من يده ، وعجبوا عندما رأوا رسول الله يتناول السيف ولا يبادر إلى قتـل غورث ، ودهشوا وعجبوا عندما رأوا غورثاً طليقاً لم يمسه أحد بسوء .

وهرعوا إلى غورث ، وكل يبدي عجبه من عجزه ثم نجاته ، وغورث يقول لهم : أيهـا القوم لا تعجبوا فقد رأيت رجلاً صالحاً وودت أني تبعته .

قال أحد الرجال: ماذا تسمع أذناي ؟ ، غورث بن الحارث الفاتك يريد أن يتبع رجلاً قلاه قومه وأخرجوه من ديارهم !

قال آخر: لو كان رجلاً صالحاً كما تدعي يا غورث ما أخرجه قومه ثم حاربوه .

قال غورث : بل إنه خير الناس جميعاً ، ألم تروا إقبـال الأوس والخزرج على دعوته ؟ ألم يتبعه من قومه رجـال ذوو عقول ؟ ألم ينتصر وهو في قلة على قريش ويهـود وغطفان مجتمعين ؟

قـال رجل : إن من يسمعك يشك أنك لم تتابعه على دينه .

قال غورث : لقد عرض عليّ ذلك فأبيت .

قـــال رجل : لمـاذا لم تفعل ونحن نراك تكيل له المدح والثناء ؟

قال غورث: لا أحب مفارقة قومي وهم له أعداء محاربون، ولكني أتريث ، ثم أنظر في هذا الأمر بعد حين .

***

وهم القوم بالانصراف عندما قام رجل منهم وقال : والله يا قوم لا أعود حتى أصيب من هؤلاء ، فقد أصابوا امـــرأتي وأخذوها سبيّة ، فهل أجد بينكم معيناً على ما أريد ؟

قالوا : هذا شأنك ، فدونك القوم ، أما نحن فلا حاجـة لنا في حربهم .

قال : أما أنا فلن أتركهم دون أن أصيب منهم ، وسوف أتبعهم حتى تلوح فرصتي فأغتنمها .

وانطلق الركب المسلم عائداً إلى المدينة ، وانسل الرجـل يتبعهم ويستخفي بالحجـارة والأشجار حتى لا يراه منهـم أحد .

وبعد مسيرة مجهدة أقبل الليل ، وأمر الرسول بالنزول ، ثم قال لأصحابه : من رجل يكلؤنا ليلتنا ؟

فانتدب لهذا الأمر رجلان : عمـــار بن ياسر من المهاجرين وعبـــاد بن بشر من الأنصار ، وقالا : نحن نكلؤكم الليلة يا رسول الله .

قال عليه السلام : فكونا بفم الشّعب من الوادي .

ولما صارا بفم الشّعب قال عباد لعمار : أي الليل تحب أن أكفيكه ، أوله أم آخره ؟

قال عمار : بل اكفني أوله .

واضطجع عمار فنام ، وقام عباد يصلي .

ونظر الرجل الغطفاني فرأى عباداً قائماً يصلي ، فعرف أنه ربيئة المسلمين، فوضع سهمه في قوسه ثم رمى به عباداً فأصابه، ولكن عباداً لم يتحرك ، ومدّ يده إلى السهم فانتزعه ، وثبت قائماً واستمر في صلاته ؛ فرماه الرجل بسهم ثان فأصابه ، ففعل عباد بالسهم الثاني ما فعله بالذي قبله ، فرماه الرجل بسهم ثالث فأصابه ، فنزع السهم ثم ركع وسجد ، ثم تشهد وسلم ، ثم نبّه عماراً وقال له : اجلس فقد أُصبت .

فوثب عمـــار ونظر ذات اليمين وذات الشمال يبحث عـــن المعتدي ، فلما رآه الغطفاني عرف أن أمره قد كُشف ففـــر هارباً ...

ونظر عمار إلى عباد بن بشر ، فرأى الدماء تنزف من جروحه ، فقال له وهو يحاول وقف تدفق الدماء : سبحان الله يا أخي ، أفلا نبهتني أول ما رماك ؟

قال عباد : كنت في سورة أقرؤها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أتمها ، فلما تابع عليّ الرمي ، ركعت وآذنتك ، وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله – ﷺ – بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطع صلاتي .

وحدّث عمار رسول الله وأصحابه بالذي حدث لعباد وبالذي قاله عباد ، فأعجبوا بموقف عباد وبصنيعه ، فأثنوا على إيمانه وشجاعته ، ودعوا له بخير .

وقال واحد من الصحابة : ما كان الغطفانيون ذوي شجاعة ، وما كانوا يوماً أهل مواجهة ، ولكنهم ما علمنا أهل غدر .

وأمر رسول الله – ﷺ – الركب بالمسير ، وتابع الصحابة في أثناء سيرهم الحديث عن غزوة ذات الرقاع وما حدث فيها من أحداث ، فذكروا الغطفانيين وجمعهم ، وذكروا صلاة الرسول بهم صلاة الخوف ، وذكروا عباداً وثباته وذكروا غورثاً ومحاولته قتل الرسول غيلة ، وذكروا كيف سقط السيف من يد غورث .

قال قائل من الصحابة : لقد أكرم الله رسولنا بمعجزة في غزوتنا هذه عندما ألقى الرعب في قلب غورث فسقط السيف من يده .

قال آخر كأنه يتابع حديث المعجزة : لقد أكرم الله رسولنا بمعجزات كثيرة أذكر لكم منها جملة إذا أردتم .

قال آخر كأنه يردّ عليهم أو يوضح لهم : نعم ، لقد أكرم الله رسولنا بكثير من المعجزات التي تشبه ما أكرم به الأنبياء من قبله ، ولكن هذه المعجزات بنت وقتها وتنقضي بانقضاء زمانها ، أما معجزة رسولنا الخالدة الباقية أبد الدهر فهي القرآن الكريم .

وصمت الرجل برهة ، ثم نظر إلى إخوانه وتابع : أتدرون أيها الإخوة لم كانت معجزات الرسل وقتية ومعجزة رسولنا باقية؟ إن معجزات الرسل يا إخوتي وقتية لأن رسالاتهم وقتية، أما معجزة رسولنا فإنها باقية دائمة لأن الإسلام هو الرسالة الخاتمة التي ارتضاها الله شريعة دائمة للبشر جميعاً إلى أن يأذن بانتهاء الحياة على الأرض .

واستمر الركب في سيره ، واستمر الحديث متواصلاً إلى أن وصلوا إلى المدينة .

ولم يكن وصول الركب المجاهد إلى قاعدته يعني الإخلاد إلى الراحة ، بل يعني الاستعداد لمتابعة الجهاد ، فأصحاب الدعوات لا يعرفون الركون إلى السكون والإخلاد إلى الراحة ، بل هم في عمل مستمر وجهاد متصل .

يا محمد؛ والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ .

ثمامة بن أُثال الحنفي

محاولة ثمامة بن أثال الحنفي

تلقت القبائل العربية دعوة الإسلام أول الأمر بلا اهتمام ، ذلك لأن الدعوة الإسلامية لم تكن بعد قد تبلورت في دولة ، ولا دخلت في حرب مع أحد ...

إلا أن عدم الاهتمام هذا بدأ بالتراجع ليحل محله ترقب للأحداث والوقائع التي بدأت أخبارها تتسلل إلى مضارب القبائل في طول الجزيرة وعرضها .

ثم ما لبث هذا الترقب أن تحول تدريجياً إلى تحفز للمشاركة في الأحداث عندما طغت أخبار الانتصارات التي أحرزتها جبهة الإسلام على جبهة الكفر بمعسكريها الوثني واليهودي ، وعندما بدأت هذه القبائل تتلقى طلبات المساعدة من جبهة الكفر المتقهقرة .

وكان موقف هذه للقبائل متعاطفاً مع جبهة الكفر بسبب

ما تشعر به نحو قريش من واجب ديني ، أصّله في نفوسهم إشرافها على مناسك حجهم ...

وتطور موقف بعض القبائل مع الأحداث والأيام ، فأخذ يتكشف عن أطماع في السيطرة والسيادة، وبدأ يتبدى ما تكنه من حسد لقريش على ما تحوزه من مفاخر

وظنت بعض القبائل أن هذه النبوة ما هي إلا بدعة قرشية لإضافة مفخرة جديدة إلى مجموع المفاخر التي احتكرتها قريش دون العرب جميعاً .. ، ولم تدرك هذه القبائل ، أو أنها لا تريد أن تدرك ، أن النبوة اصطفاء إلهي ، وأنها هداية وعدل ومرحمة لا مجال فيها للمنافسة وليست طريقاً إلى التسلط والتزعم والتَّسَيُّد ...

لقد كان بنو حنيفة في اليمامة من نجد من هاتيك القبائل التي رأت هذا الرأي المنحرف وقررت أن تدخل في منافسة مع قريش ظناً منها أن هذه النبوة يمكن أن يفوز بها من كان أوفر القبائل مالاً وأكثرها نفيراً ، ولما كانت تظن نفسها كذلك فقد أعلنت أنها لا تسلم لقريش بالنبوة إلا إذا تركت لها نصفها ووافقت على اقتسام الأرض معها ...

وأعلن مسيلمة الكذاب نفسه نبياً ، والتف حوله بنو حنيفة عصبية لقبيلتهم لا تصديقاً لدعوته ، وأكبر الظن أنه لم يكن

يهم غالبيتهم العظمى أن يكون مسيلمة كذاباً أو صادقاً ، بل الذي يهمهم أنه رجل من قبيلتهم وأن دعوته هذه مفخرة لهم ، تزيد في عزمهم ، وترفع من قدرهم ، وتـعلي من شأنهم .



وكان ثمامة بن أُثال الحنفي ممن رأى هذا الرأي وذهب هذا المذهب ، فتقرب إلى مسيلمـة ، وأبدى إعجابه به ، وأظهـر تأييده له ولمـا يدعيه ، وأبدى في الوقت نفسه حقداً على محمد وبغضاً للمسلمين ونفوراً من دعوة الإسلام وازوراراً عن كل مـا يتصل بها .

ولم يكن لدى مسيلمـة أفضل من ثمامة يرسله في وفد إلى المدينـة ليقابل رسول الله - ﷺ - ويقـدم له مطالب بني حنيفـة في الاشتراك في النبوة وفي اقتسام الأرض مـع قريش !

ولعل ثمامة أراد أن تستأثر قبيلته بالنبوة كلهـا وبالأرض جميعها عندمـا حاول اغتيال الرسول وآثر هذه الطريقـة على طريقة مسيلمة في إرسال الرسل والمفاوضات .

وفشل تدبير ثمامة ، وانكشف أمره ، وعاد مع أصحابه إلى مسيلمة بجواب رسول الله وإعلانه للناس أنه كاذب ، ولصق

باسم مسيلمة منـذ ذلك اليوم لقب الكذاب ، ولم يعـد يعرف إلا به .

ولم يعاقب رسول الله – ﷺ – ثمامة على محاولته الغدر به ، وعامله معاملة الرسل ، وردّه من حيث أتى .

كان من الممكن أن تُلين هذه المعاملة من رسول الله قلبَ ثمامة لولا ما امتلأ به من حقد وفاض به من حسد ، وقد دفعه حقده وحسده إلى الاستمرار في كيده والمبالغـة في عداوته واللجاجة في خصومته ، وحاول أن يقتل العلاء بن الحضرمي الذي أرسله رسول الله – ﷺ – إلى المنذر بن ساوى بالبحرين يدعوه إلى الإسلام ، وكاد أن ينفذ غدرته لولا أن نهاه عمه عن ذلك ...

وعندما وصل إلى رسول الله – عليه السلام – نبأ تعرض ثمامة للعلاء ، أهدر دمه ، وأمر من يلقاه من المسلمين أن يقتله ، ودعا الله أن يمكنه منه .

★ ★

كان ثمامة شديد الاعتداد بنفسه ، عميق الثقة بهـا ، وقد دفعه هذا الاعتداد وهذه الثقة إلى أن يتصرف بلا تحفظ ، بل وبتهور شديد ..

كان يعلم أنه مهدر الدم ، وأن المسلمين لا يفتئون يجوبون بسراياهم أطراف المدينة ويصلون في تطوافهم إلى مشارف مكة ، ومع ذلك فإنه خرج من نجد حيث مضارب بني حنيفة ومساكنهم قاصداً مكة ، وليس معه من قومه أحد ، ولا يحسب لأولئك الذين أهدروا دمه حساباً ...

وكانت سرية إسلامية بقيادة الصحابي الجليل محمد بن مسلمة الأنصاري عائدة من القرطاء بعد أن أدت مهمتها في تأديب الأعراب فيها ، فرأت ثمامة يغذ السير نحو مكة ، فراقبته فارتابت به ، ولم يكن أحد من أفراد السرية يعرفه ، فأوقفوه واستنطقوه ، ولكنه أبى أن يفيدهم بشيء ، فاستاقوه معهم إلى المدينة ، وأقبلوا به على رسول الله - ﷺ - ، فقال لهم - عليه السلام - : أتدرون من أخذتم ؟

قالوا : لا يا رسول الله ، صلى الله عليك .

قال : هذا ثمامة بن أُثال الحنفي .

وهب رجال من الصحابة وقالوا: يا رسول الله ، لقد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعنا نضرب عنقه يا رسول الله .

ولكن رسول الله - ﷺ - أبى ، وطلب منهم أن يربطوه في سارية المسجد ، ثم التفت إليهم وقال أحسنوا إساره .

ترك رسول الله الصحابة يربطون ثمامة إلى سارية المسجد ، ودخل على أهله وقال لهم : اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، ثم أمر بناقة يأتيه لبنها صباحاً ومساء .

ودهش الصحابة وعجبوا عندما رأوا ثمامة وهو يأكل ويشرب، فكانوا إذا أتوه بطعامه رأوا أكلاً منكراً، وقدروا أنه يأكل ما يكفي أسرة كاملة ، فإذا شرب صبوحة أو غبوقة اتسعت أحداقهم لما يرونه من إسرافه في الشرب .

وجاء رسول الله إلى ثمامة وقال له : مالك يا ثمام ، هل أمكن الله منك ؟

قال : قد كان ذلك يا محمد .

وتركه رسول الله - ﷺ - وانصرف .

وقضى ثمامة ليلته في المسجد ، فرأى الصحابة عاكفين على الصلاة والتلاوة ، إذا انتهى فوج وخرج لشأنه جاء فوج آخر ، والمسجد لا تنقطع فيه الصلاة طوال الليل ، وعندما حان الفجر سمع بلالاً بصوته الندي يؤذن، ويدعو المؤمنين إلى الصلاة والفلاح ... فما راع ثمامة إلا أفواج المسلمين تتدفق على المسجد حتى ملأته ، فعجب لهذه الأعداد التي تتجمع في مثل هذا الوقت المبكر ، وتساءل عما يمكن أن يفعلوه .. وعندما خرج رسول الله من بيته في المسجد رأى أعناق المسلمين قد

اشرأبت ، وأعينهم قد تحفزت وأخذت تتابع الرسول حتى وصل إلى موضعه أمام المسلمين ، ولم تخف على ثمامة نظرات الإعجاب التي تفيض محبة صادقة لهذا النبي .. ثم سمع بلالاً يقيم الصلاة فرأى كل من بالمسجد يصطف خلف رسول الله في نظام ليس بعده نظام .. ثم تابع مراقبته لهم ، فرآهم يتابعون رسول الله في كل ما يقول ويفعل فرآهم إذا قرأ استمعوا وإذا ركع ركعوا وإذا سجد سجدوا ... ، وأخذ عليه لبه هذا الكلام الذي سمع رسول الله يقرؤه في الصلاة ، وعرف أنه القرآن الذي يتحدى به محمد فصحاء العرب وبلغاءَهم ، ووقع كل ذلك من قلب ثمامة موقعاً عظيماً ...

وجاء رسول الله – ﷺ – إلى ثمامة بعد انقضاء الصلاة وقال له : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : يا محمد عندي خير ، إن تقتل تقتل ذا دَمٍ ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

وتركه رسول الله – ﷺ – وانصرف عنه .

ومرّ يوم آخر على ثمامة وهو يرى من المسلمين ما يعجبه وما يروقه .

وعاد إليه رسول الله مرة ثانية وكرر عليه سؤاله بالأمس : ما عندك يا ثمامة ؟

وثمامة يرد كما ردّ بالأمس : عندي خير ، إن تقتل تقتل ذا ذنب ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط ..

ويتركه رسول الله - ﷺ - ، حتى إذ ابتعد عنه قال : اللهم أكلة لحم من جزور أحب إليّ من دم ثمامة .

وعندما سمعه الصحابة يقول ذلك عرفوا أنه يميل إلى العفو عن ثمامة، فدعوا الله أن يهدي ثمامة ، وأقبلوا عليه يزيدون في إكرامه والإحسان إليه .

وكلما مرت ساعة على ثمامة وهو في موضعه هـذا من المسجد يري ويسمع مـا يعجبه ، إزداد قرباً من الإسلام وحبـاً لأهله ...

وجاءه رسول الله - ﷺ - في اليوم الثالث وقال له مقالته في اليومين السابقين : ما عندك يا ثمامة ؟

واطرق ثمامة ملياً ، ثم رفع رأسه وقال ما قاله في اليومين السابقين : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا ذنب ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول الله - ﷺ - لأصحابه : اطلقوا ثمامة .

ثم نظر إلى ثمامة وقال له : قد عفوت عنك يا ثمامة .

وأطلق سراح ثمامة ، ونظر إلى رسول الله ملياً ، ثم إلى الصحابة الذين تحلقوا حوله ليروا ما هو صانع وليسمعوا ما هو قائل ، ولكن ثمامة انطلق من المسجد وخرج ...

إلى أين يا ثمامة ؟ هـــذا هو السؤال الذي سأله ثمامة لنفسه أول ما خرج من المسجد ، إنه يريد شيئاً فما يدري مـــا هو صانع حتى يدركه... إن هذا الذي رآه من رسول الله وصحبه قد ملأ قلبه حباً للإسلام وأهله ، وقرّر في نفسه أن يسلم قبل أن يفكوا إساره ، ولكنه آثر أن يعلن إسلامه طليقاً مختاراً حتى لا يُظن أنه إنما أسلم خوفاً من القتل أو ضيقاً بالأسر .

إلى أين يا ثمامة ؟

إلى مكان أستتر به فأغتسل فأتطهـر فأعود إلى رسول الله فأشهد أنه رسول الله .

إذن إلى البقيـع .

وذهب ثمامة إلى البقيـع فاغتسل ، وكرّ راجعاً إلى المسجد، فتلقاه رسول الله والصحابة بالوجوه الباشة المرحبة .

ووقف ثمامة بين يدي رسول الله – ﷺ – باسم الوجه ، منشرح الصدر ، هادىء النفس ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وأسرع الصحابة إلى ثمامة يهنئونه بمـــا أنعم الله عليه من

الإيمان ، وبما أكرمه من الانضمام إلى جماعة الإسلام .

ونظر ثمامة إلى رسول الله – عليه السلام – فوجده مشرق الوجه باسم الثغر ، فقال : يا محمد ، والله ما كان على وجه الارض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، والله مـا كان دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إليّ ، والله ما كان بلد أبغض إلي من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ .

فدعا له رسول الله – ﷺ – بخير ، وبشّره بخير الدنيـا والآخرة .

وتذكر الصحابة أن ثمامة لم يأكل بعد ، فدعوا له بطعامه وشرابه اللذين كانا يقدمان له كل يوم ، فمد يده فلم ينل من الطعام إلا قليلاً ، ولم يشرب من اللبن إلا يسيراً .

وتعجب الصحابة من أكله وشربه ، فقد كان أكله وشربه بالأمس غيره اليوم .

ولما رأى رسول الله عجبهم قال : مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهـــار في معي كافر ، وأكل آخر النهار في معي مسلم ؟! إن الكافر ليأكل في سبعة أمعاء ، وإن المسلم ليأكل في معي واحد .

قال ثمامة : يا رسول الله ، أريد العودة إلى أهلي وعشيرتي

أدعوهم إلى الله ورسوله لعلهم يهتدون بي ، فأذن لي يا رسول الله أن أمر بمكة فأعتمر ثم أذهب إلى اليمامة ...

فأذن له رسول الله بذلك .

وخرج ثمامة من المدينة بوجه غير الذي دخلها به ، وانطلق منها بنفس غير التي دخلها بها ، وقطع ما بين المدينة ومكة وهو يحمد الله على أن هداه للإسلام ، ويفكر في أفضل الوسائل وأنجع الطرق لخدمة دينه الجديد ...

واقترب من مكة ، وتذكر أن من فيها يحادون الله ورسوله ، فقرر أن يتحداهم ويغيظهم ، ويدخل عليهم معلناً إيمانه ، وكذلك فعل ، فدخل مكة رافعاً صوته بالتلبية ، جاهراً بشهادة التوحيد ، لا تخيفه قريش في بلدها وهو الوحيد الغريب ، لقد صنع الإسلام منه رجلاً جديداً تكسوه عزة الإسلام ، وتملؤه حرارة الإيمان ، فهو لا يخشى قريشاً ولو جمعت له قريشاً أخرى ...

ارتاعت قريش لما سمعت ، أيجرؤ أحد أن يجهر بالإسلام في بلدها ، ومن هذا الذي غرته نفسه وأوقع بها في مهاوي الردى ؟

من ؟ ثمامة بن أُثال الحنفي ؟ لا أهلاً بك ولا مرحباً !

وانقضوا عليه وأخذوا بتلابيبه وصاحوا به : لقد تعديت

أمورك واجترأت علينا في حرمنا ، أصبوت وتركت دين آبائك وجئتنا تتحدانا في عقر دارنا ؟ أتظن أنا نتركك تطوف بالبيت مسلماً ، لا والله لن يحدث هذا أبداً .

قال لهم : أرسلوني ويحكم ، إنكم تعلمون من أكون ...

قالوا : نعرفك عندما كنت على ديننا ، أما اليوم فقد صبوت مع محمد .

قال : والله لا أدري ما تقولون ، ولكني تبعت خير الدين .

قال واحد من سفائهم : يا معشر قريش لا تدعوا هذا الصابىء يفلت من أيديكم ، ونكلوا به ليكون عبرة لغيره .

قال عاقل منهم : لا تستمعوا إلى ما يقوله هذا ، فإن ثمامة سيد مطاع في بني حنيفة ، دعوه ولا تسيئوا إليه ، فإنكم تحتاجون إلى اليمامة وميرتها .

فأرسلوه وهم محنقون ...

فذهب ثمامة إلى الكعبة وطاف بها ، ثم أقبل على قريش وقال لهم : يا معشر قريش ، إني أقسمت برب هذه البنيّة

(الكعبة) لا يصل إليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى يأذن محمد أو تتبعوه من آخركم .

قالوا له بلهجة المستعطف الخائف : أو تفعلها يا ثمامة ؟

قـــال وهو ينطلق إلى مقصده : سأريكم أني لا أقول إلا صدقاً .

* * *

ومنع ثمامة الميرة عن قريش ، فأصابهـــم من ذلك ضيق شديد، وساءت حالهم فما وجدوا ما يأكلون ، حتى أنهم أكلوا العلهـــز ، (وهو الدم يخلط بأوبار الإبـــل ويشوى على النار) .

اجتمع السادة من قريش لينظروا في هـــذا الأمـــر الذي أصابهـــم ، لقد ابتلوا بالخوف من محمد وأصحابه ، ثم هـــا هي البلوى تتم فيبتلون بالجوع ..

قال قائلهم : لقد أصبحنا في شرّ حال ، فانظروا مـــاذا تفعلون .

قال واحد من السادة : لقد أغلقت دونكم المنافـــذ ، ولا أرى لكم ملجأ مما أنتم فيه إلا إلى محمد .

قـــال آخر : لا نطلب من محمد شيئـــاً فيظن فينا الضعف

والوهن .

ردّ عليه السيد فقال : يا بن أخي ، ليس هناك من ضعف أشد مما نحن فيه ، وليس هناك من هوان مثل الذي نقاسيه ، ولا بد لنا أن نطرق باب محمد .

قالوا : كيف نرجو محمداً لهـذا الأمر وقد سبق لنـا أن حرمناه وأهله وصحبه الطعام ثلاث سنين عندما حصرناهم في شعب أبي طالب ، أينسى محمد هذا ويرق لنا ؟

قال عاقل منهـم : إن محمداً يدعو إلى الخير وينادي بصلة الأرحام،ولا أظنه يرضى أن نموت جوعاً، فنحن أهله وعشيرته، ومحمد لا يقابـل السيئة بالسيئة ، بل يقابـل السيئة بالحسنة ، أطيعوني وأحضروا ما نكتب فيه إلى محمد نطلب منه أن يشفع لنا لدى ثمامة .

قالوا : إذا كان لا بد من ذلك ، ولا طريق غير هـذا ، فاحرصوا على أن لا تبدوا له ضعفاً ، وأروه من أنفسكم صبراً وتجلداً ...

وجاءوا بجلد ، فكتبوا عليه ومحوا ، وبدؤوا وأعادوا إلى أن ارتضوا صيغة فكتبوها ، ثم قرأها واحد منهم ليسمعهـا الجميع : ألست تزعـم أنك بعثت رحمة للعالمين ، فقد قتلت الآباء بالسيف والأبنـاء بالجوع ، إنك تأمـر بصلة الرحم وقد

قطعت أرحامنا ، فهذا ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلّي بيننا وبين ميرتنا فافعل .

وورد كتابهم إلى رسول الله فقُرِئ عليه ، فما أغضبه جفاؤهم ، ولا شمت بحالهم ، ولا تذكر إساءَتهم بل ملأته الرحمة بهم والشفقة عليهم ، فأمر من يكتب إلى ثمامة بقوله : خلّ بين قومي وبين ميرتهم .

وعندما وصل كتاب رسول الله إلى ثمامة بادر إلى إطاعة أمره وأرسل الميرة إلى قريش .

★ ★ ★

وبقي ثمامة في بني حنيفة يدعوهم إلى دين الله إلى أن انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى ...

وارتدت الأعراب، ومنهم بنو حنيفة ، وتحفزوا للانقضاض على من بقي من المسلمين .

وكانت الردة في بني حنيفة عاتية لوجود مسيلمة ، وثبت ثمامة على إسلامه، وأخذ يدعو الناس إلى الثبات وإلى الانفضاض عن مسيلمة ؛ وكان مما قاله لهم : يا بني حنيفة ، إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، إنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم ، وبلاء على من لم يأخذ به منكم ، وإنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، وإنّ محمداً رسول الله، ولا نبيّ بعده، ولا نبي يشرك معه ، يا بني حنيفة ؛ أين عزبت عقولكم ، بسم الله الرحمن

الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

هذا كلام الله ... أين هذا من : يا ضفدع نقي نقي ، لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين . والله إنكم لترون أن هذا كلام ما خرج من إلّ(٢) .

وانحاز إلى ثمامة ثلاثة آلاف من بني حنيفة ، عرفوا الحق فوالوه ، وعرفوا الباطل فعادوه .

وانحازت أغلب بني حنيفة إلى مسيلمة عصبية وجهلاً وعناداً .

وعندما رأى ثمامة قومه يتركون الحق ويتبعون الضلال عجب من موقفهم واستنكره ، وقال في ذلك :

دعانا إلى ترك الديانة والهدى
مسيلمة الكذاب إذ جاء يسجع

فيا عجباً من معشر قد تتابعوا
له في سبيل الغي ، والغيّ أشنع

وبقي ثمامة ومن معه يراقبون الموقف وينتظرون أمر الخلفة ، وكانوا يخشون أن يهاجمهم مسيلمة بمن معه ، ولكن

غافر : ١-٣ .

---

(٢) الإل : الأصل الجيد ، أي أن هذا الكلام لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن الكريم ، (راجع مادة ألل في اللسان) .

مسيلمة شغل عن ذلك بأخبار الجيوش الزاحفة للقائه بقيادة سيف الله خالد بن الوليد ...

وفي هذه الأثناء مرّ بأطراف اليمامة قاصداً البحرين القتال المرتدين فيها العلاء بن الحضرمي ، فقام ثمامة فيمن ثبت معه على الإسلام وقال لهم : والله إني ما أرى أن أقيم مع هؤلاءَ مع من قد أحدثوا، وإن الله ضاربهم ببلية لا يقومون بها ولا يقعدون وما أرى أن نتخلى عن هؤلاء وهم مسلمون وقد عرفت الذي يريدون ، وقد مروا قريباً ولا أرى إلا الخروج إليهم ، فمن أراد الخروج منكم فليخرج .

فاستجابوا له ، وخرج مُمدّاً للعلاء ، وشاع ذلك في القبائل المرتدة ففتّ في عضدها وأضعف موقفها .



وسار العلاء بمن معه ، وبالمدد الذي انضم إليه من بني حنيفة إلى البحرين ، فحاصر المرتدين بها ، ولم يزل بهم حتى هزمهم .

وقسمت الغنائم ، وأقيمت السوق لمن أراد أن يبيع قسمة من الغنيمة ، وأعجب ثمامة بخميصة كانت للحطم بن ضبيعة سيد من سادات بني قيس بن ثعلبة قُتل مع المرتدين ، فاشتراها ولبسها ، ثم استأذن الأمير بالعودة إلى اليمامة ، فقد انتهى أمر

المرتدين ، وقتل مسيلمة وفاءت بنو حنيفة إلى الله ورسوله .

ومرّ ثمامة ببني قيس بن ثعلبة ، فرأوا عليه خميصة الحطم ابن ضبيعة ، فأمسكوا به وقالوا له : أنت قتلت الحطم .

قال : لم أقتله ، ولكني اشتريتها من المغنم .

قالوا : وإنْ !

وأخذتهم العـــزة بالإثم ، واستولت على تفكيرهم عصبية الجاهلية ، وذهبت بعقولهم النعرة القبلية ، فوثبوا على صاحب رسول الله فقتلوه .

وذهب ثمامة بن أُثال المجاهد ضحية العصبية الذميمـــة ، وسقط شهيداً بعد أن جاهـد بلسانه وسيفه ، رضي الله عنه وأرضاه .

قالت : هلمَّ إلى الحديث ، فقلت : لا
يأبـــى عليـــك الله والإسلام

لو مـــا رأيت محمـــداً وقبيله
بالفتح يوم تكسر الأصنـــام

لرأيت دين الله أضحى بيِّنـــاً
والشرك يغشى وجهـــه الإظلام

فضالة بن عمير الليثي

المحاولة العاشرة

محاولة فضالة بن عمير الليثي

غزا جيش الرعب قلب أبي سفيان ، زعيم قريش ، فأخذ يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة يتسقط الأخبار ، خشية أن يدهمهم جيش الإيمان فجاءة فيستأصل شأفتهم ويبيد خضراءهم .

لم يعد في قلب أبي سفيان ، ولا في قلوب من معه من سادة قريش ، مقدرة على تحمل المدافعة والمقاومة ، فقد انتهوا إلى حالة من الهزيمة النفسية تهون معها هزائم المعارك وميادين القتال .

لقد أصبحوا في حالة من اليأس تُذل النفوس وتدفعها إلى الانقياد المهين ، حالة رضي فيها أبو سفيان من الفخر الذي يتمشقه بهذا الجزء اليسير الذي لا يعني أكثر من حفظ ماء الوجه : من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، ذلك لأن هذا الامتياز حازه كل شخص له بيت في مكة : من دخل بيته فهو آمن ،

وحصل عليه أيضاً كل إنسان ليس له في مكة بيت : من دخل المسجد فهو آمن .

وحاول جماعة من فرسان قريش أن يرموا بآخر سهم في جعبة شجاعتهم ، فتصدوا لخيل المسلمين المندفعة بفيض من الحماس والشوق لتحطيم الوثنية في مكة ، فلم يلبثوا لحظات حتى مزقوا كل ممزق ، وذهبوا بين قتيل وجريح وطريد .

وكان هذا اللقاء الأخير في الخندمة هو آخر قطرة تسكبها قريش من كأسها الذي كان مترعاً بالغيظ والحقد والعداوة والبغضاء ، فقد غدا هذا الكأس فارغاً إلا من فقاعات الهواء التي لا تغني شيئاً .

وانطلق حماس ابن قيس الكناني ، أحد الفارين من لقاء الخندمة ، إلى زوجه التي كانت تنتظر أخبار نصره ، وعندما رأته مقبلاً قامت تسائله عن أخباره ، فلما عرفتها لامته على فراره ، فرد عليها واصفاً لها ما لاقاه القرشيون من فرسان المسلمين معتذراً عن فراره بفرار صناديد قريش وفرسانها : عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية :

إنك لو شهدت يوم الخندمة
إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة

ولحقتنا بالسيوف المسلمة
يفلقن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت حوله وحمحمة
لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

ودخل رسول الله - ﷺ - مكة - تحفه هيبة النبوة ويتبعه صحابته الأبرار ، واتجه نحو الكعبة وأخذ يشير إلى أصنامها فتتهاوى إلى الأرض محطمة ، ويكبر الرسول ، ويكبر وراءه أصحابه ، ويتلو الرسول قوله تعالى : « وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ويرددها خلفه المؤمنون ، وترددها خلفه وهاد مكة وشعابها وجبالها ...

ويأمر رسول الله صاحبه بلالاً فيصعد إلى ظهر الكعبة فيؤذن ، ويرتفع في سماء مكة نداء النصر وكلمة التوحيد ودعوة الفلاح .

حدث كل هذا والقرشيون في مكة ذاهلون عن أنفسهم ، يرون بأعينهم كل ما كانوا يقدسونه من أصنام وأوثان ونصب تتهاوى وتصبح أثراً بعد عين ، فيكاد العقل يكذب البصر لولا ما يسمعونه من أصوات التهليل والتكبير تشق الفضاء وتجاوز الجوزاء .

وأقبل ثلاثة من سادة قريش فجلسوا يشاهدون ما يفعله المسلمون ، فأهاج كل ذلك ما كمن في نفوسهم من الحقد ، وفجر ما كبت في قلوبهم من الغيظ ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أبي أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه .

وقال الحارث بن هشام المخزومي : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

قال ابو سفيان بن حرب وهو لا يستطيع أن يداري غيظه : لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى !

إنه يريد أن يتكلم بسوء ، ولكن الخوف يلجمه .

وأقبل رسول الله – ﷺ – على هؤلاء النفر ، فقال لهم : قد علمت الذي قلتم .

وتطلع كل واحد منهم إلى صاحبه ، كأنه يقول : ومن أين له أن يعلم ؟

قال رسول الله : أما أنت يا عتاب فقد قلت كذا ، وأما أنت يا حارث فقد قلت كذا ، وأما أنت يا أبا سفيان فقد قلت كذا ، وقال لكل منهم ما تلفظ به .

فقال عتاب : أشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك .

وقال الحارث : أشهد أنك رسول الله ، صدق عتاب ، والله ما كان معنا أحد يسمع ما نقول وإني لأعلم أن الله أخبرك .

لقد أسلم عتاب بن أسيد والحارث بن هشام ولم يكونا أسلما قبل هذا الحديث ، ولم يتكلم أبو سفيان فقد كان مسلماً !

ولم يكن عتاب والحارث وحدهما من الذين أحنقهم ما فعله رسول الله بالأصنام وما نادى به بلال من فوق الكعبة بالمسجد الحرام ، فقد كان فضالة بن عمير الليثي يشاهد كل ذلك ويغيظه ومرّ من أمامه رسول الله - عليه السلام - فقال عمير يحدث نفسه : هذا الذي قتل آباءنا وسفه أحلامنا وعاب ديننا وحطم آلهتنا أمام أعيننا ، إن دماء آبائنا تنادينا لنأخذ بثأرها ، وإن هبل والأصنام من حوله لتنادي بالانتقام لها ... إن أشد ما يغيظني صوت هذا العبد الحبشي وهو يرفع صوته بما يسمونه الأذان ، أين أنت يا أمية بن خلف لترى عبدك أصبح سيداً مطاعاً يعتلي أقدس بناء .. لقد كنت سعيداً إذ مت قبل أن ترى ما أرى إن صوته ليحرق كبدي ويثير براكين حقدي وغضبي ، إن أصوات الانتقام لتنبع من أعماق أعماقي ، إني لا أستطيع أن أعيش ساعة واحدة في بلد لم يعد باستطاعتي أن أفعل فيه ما أريد ، وأنا لا أستطيع أن أترك مكة لأني لا أقدر أن أعيش في غيرها .. لا بد أن أنتقم ، لا بد أن أقاوم ،

لا بد أن أُسكت هذه الأصوات التي تعلو بالأذان والقرآن ...
لا بد .. لا بد .. لا بد ...

ومر رسول الله من أمام فضالة مرة أخرى ... قال فضالة لنفسه : هذا هو محمد ، يسير وحده بلا حرس فلو أني اقتنصت منه فرصة فانقضضت عليه فقتلته ، إني إذا فعلت ذلك ألحقت الهزيمة بالمسلمين فإنهم مـا انتصروا إلا به ولا يجتمعون إلا عليه .

وتحسس فضالة سيفه ، وتقدم يسترق الخطى حتى اقترب من رسول الله ، ومد يده نحو سيفه ، فإذا برسول الله يقول له أفضالة ؟

قال وقد أخذ بهيبة الرسول : نعم فضالة يا رسول الله .

قال — عليه السلام : ماذا كنت تحدث به نفسك .

وذهل فضالة لهذا السؤال ، إن رسول الله يسأله عما حدث به نفسه... قال فضالة لنفسه : وماذا يعلم محمد من دخيلة نفسي؟ لا ، لا يمكن أن يكون سؤاله هـذا عما حدثت به نفسي من الفتك به ، لا شك أنه يقصد أمراً غيره ...

قال فضالة : لا شيء يا رسول الله ، كنت أذكر الله .

فضحك رسول الله — ﷺ — ثم قال : استغفر الله .

أدرك فضالة أن محمداً قد كشف سرّه وأُطلع على خبيئة

نفسه ، فداخله خوف شديد ، فاضطرب صدره وخفق فؤاده، ولم يدر ما يقول .

وناداه رسول الله ، فأقبل حتى وقف أمامه ، ومد رسول الله يده إلى صدر فضالة ووضعها على قلبه ...

إنهـا يد رسول الله ، مـا امتدت إلى شيء إلا زكا وطاب .

وها هو ذا قلب فضالة يسكن بعد خفقان شديد ويهدأ بعد رعب مريع، ويجد فضالة في نفسه سكينة واطمئناناً، وينقلب ما كان يشعر به من حقد وبغض لمحمد فيغدو حبـاً غامراً طاغياً .

يقول فضالة : ما إن وضع رسول الله يده على صدري حتى أصبح ليس هنـاك على وجه الأرض من خلق الله شيء أحب إليّ منه .

واستأذن فضالة وانصرف ، وأخذ طريقه المعتاد إلى بيته ، فمر بامرأة كان يتحدث إليها من قبل ، فقالت له : هلم إلى الحديث يا فضالة .

قال : لا ، قد كان ذلك قبل اليوم .

قالت : عجباً ، وما الذي غيرك اليوم ؟

قال : الإيمان بالله ورسوله ، ثم أنشد :

قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا

يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله

بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيِّناً

والشرك يغشى وجهه الإظلام

ومضى فضالة في درب الإسلام .

ومضى أهل مكة كذلك .

لقد دخل رسول الله – ﷺ – مكة ، فلم يفتحها فقط ، وإنما فتح قلوب أهلها ، فخالطتها بشاشة الإيمان ، فلم يعد فيها متسع لشيء سواه ...

وبقي في مكة نفر لا زالت تترسب في قلوبهم ثمالة من أحقاد الجاهلية ، ولكنها ثمالة لن تلبث أن تزول ، فتصفو قلوبهم للإسلام الذي جاء به محمد ، وتمتلىء بالإيمان الذي يحيي القلوب بعد موتها .

الله يعلم أني أحب أن أقي رسول الله بنفسي ، ولو كان أبي حياً ولقيته تلك الساعة لأوقعت به .

شيبة بن عثمان العبدري

محاولة شيبة بن عثمان العَبْدَري الحَجبي[1]

ارتجت أرجاء الجزيرة بأخبار فتح مكة ، فتلقتها القبائل التي لا زالت على وثنيتها بالذهول والدهشة ، وأفقدها هول المفاجأة ووقعها الصاعق سلامة التفكير وحسن التدبير ، فلزم بعضها الصمت ولم تحرك ساكناً ، وبعضها أعماها الغضب ، فطار صوابها وطاشت حلومها ، واندفعت في هذه السورة الغاضبة الحاقدة نحو مكة تريد أن تنازل المسلمين ، وخيل لها كبرياؤها الجاهلي أنها تستطيع أن تنقذ الوثنية من هزيمتها ، وهيأ لها صلفها القبلي أنها قادرة على نجدة المنهزمين من رعاة الوثنية والقيم الجاهلية ...

من هذه القبائل التي اختارت طريق العداوة والبغضاء ، قبائل هوازن التي تسكن الطائف وما حولها ، فسارعت لحشد قواها كلها ، واندفعت في الطريق إلى مكة ...

وسرت في مكة أخبار هذه الحشود ، فاستبشر بها من لا

(١) العبدري: نسبة الى عبد الدار، والحجبي: نسبة إلى حجابة الكعبة .

يزال على وثنيته من أهل مكة ، ومن أسلم تعوذاً أو اعترافاً بالأمر الواقع ، وأمل هؤلاء وهؤلاء أن تكون هزيمة المسلمين على أيدي هذه القبائل التي عرفت بالبأس والشدة ، ودرب رجالها على فنون الحرب والنزال وبرعوا فيها ، واستبشر المؤمنون بهذه الأخبار أيضاً لأنها تفتح لهم باباً للجهاد الذي يفتح لهم سبل الخير في الدارين ، ويفتح لغيرهم باب الرحمة في الدخول في هداية الإسلام .

ورسول الله – ﷺ – لا ينتظر حتى يدهمه الجيش في مكة بل يأمر المسلمين بالخروج لملاقاة هذا العدو ، فيتدافع الناس للخروج ، حتى أنه لم يبق بمكة رجل قادر على حمل السلاح إلا وخرج مع المسلمين ، وقد بلغ من ضمهم هذا الجيش اثنا عشر ألف مقاتل .

وضم هذا الجيش نوعاً جديداً من المقاتلين لم تكن جيوش رسول الله – ﷺ – تضمهم من قبل ، فقد ضم طلقاء مكة الذين أسلم غالبيتهم تعوذاً وخوفاً ومداراة ، وضم أيضاً من بقوا على كفرهم من أهل مكة وأغلب الظن أن هاتين الفئتين خرجتا في جيش المسلمين طمعاً في الغنيمة إذا كانت الدائرة للمسلمين ، ورغبة في التشفي إن كانت الدائرة عليهم .

سالت بطاح مكة بأمواج هذا الجيش العرمرم ، واتجهت جموعه متدفقة كالسيل الأتي نحو الطائف حيث تجمع جيش

هوازن ، ولكن هذه الجموع صدمت صدمة عنيفة بالكمائن التي أعدها لهم العدو ، فأربكت الجيش ، وزاد ارتباكه ما أقدم عليه كفار قريش والمؤلفة قلوبهم من الفرار السريع ، فانتكس الجيش كله وتقهقر عائداً من حيث أتى .

ونظر رسول الله إلى أولئك الذين أفقدتهم المفاجأة صوابهم فتركوا مواقعهم ، فناداهم : إليّ عباد الله ، أنا النبي لا كذب ، أنا بن عبد المطلب .

وثبت رسول الله في مكانه ، وثبت معه أحد عشر رجلاً من المسلمين ، والتفوا حوله يضربون في الجيش المهاجم ذات اليمين وذات الشمال .

وأمر رسول الله - ﷺ - عمه العباس أن ينادي بصوته ويقول : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ...

ورفع العباس بهذا النداء صوته ، فتجاوبت به الشعاب والوهاد ، وتناهى الصوت إلى أولئك الرجال الأفذاذ ، وما إن لامس أسماعهم حتى أعادهم إلى رشدهم ، فعطفوا خيولهم يريدون أن يبلغوا مصدر الصوت حيث رسول الله ، ولما رأوا أن خيلهم تعيقهم تركوها واندفعوا يشقون طريقهم بصعوبة بين أمواج المتقهقرين ، ويندفعون باتجاه رسول الله - ﷺ - ...

ونظر الذين تمنوا أن يروا المسلمين منهزمين ، فأفرحهم ما رأوا وسرّهم ما شاهدوا ، فأبدوا ما كانوا يخفونه في صدورهم ، وأظهروا ما كتموه في نفوسهم ، وأبانوا عن ضغائن قلوبهم :

قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر !

ولكن هذا الكلام لم يعجب صفوان بن أمية – وقد كان كافراً – ، فانتهر أبا سفيان وقال له : بفيك الكثيب .

يقول له : أُلقمت التراب والحصى على هذه الأمنية .

وتجاوب الحارث بن كلدة – أخو صفوان لأمه – مع أبي سفيان وقال بنشوة : الآن بطل السحر !

فأغاظ كلامه صفوان وقال له : اسكت فضّ الله فاك !

وأنكر أنصار الكفر على صفوان موقفه العجيب ، فهو عدو لمحمد الذي قتل أباه وأخاه وعمه ، فكيف ينكر على الناس ما سرّهم من هزيمة المسلمين ؟

قال صفوان موضحاً موقفه : والله لئن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن .

ومرّ رجل بصفوان وهو لا يزال في موقفه ذاك وقال له : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً .

فانتهره صفوان وقال له : أتبشرني بظهور الأعراب ، فوالله لرب رجل من قريش أحب إليّ من رجل من الأعراب .

إذن ، لم يغضب صفوان للإسلام وأهله ، إنما غضب للقوم والعشيرة ، فصفوان لا يزال يعيش في أجواء الجاهلية ، يغضب للعشيرة ويفرح لها ، ولم يدخل قلبه بعد إسلام وإيمان ...

بهذه الأماني تلقى الطلقاء نكسة المسلمين :

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

ما أسرع ما بان نفاق أبي سفيان ، وما أسوأ ما تمناه للمسلمين ، ولكن الله سيرد كيده في نحره ، ويبطل ما تمنى ...

الآن بطل السحر .

هذه أمنية الحارث بن كلدة ، بل هذا اعتقاده الباطل في الإسلام ، إنه سحر ، وليس برسالة ودين ، نعم يا بن كلدة بطل السحر ، إن السحر الذي بطل هو سحر الأعداد الكبيرة التي ظن البعض أنها سبب النصر ، وأن الفوز والظفر معقود بها .

إنهم لا يجبرونها أبداً ..

ما أبعد ما خيلت لك نفسك ، وما أبعد ما تمنيت أيها الرجل الجاهلي .

وإن جيشاً فيه مثل هؤلاء لا تستغرب فيه الهزيمة أبداً...

هكذا كان حال المسلمين ساعة الهزيمة في حنين : رسول الله في أحد عشر من أصحابه يصمدون لجيش هوازن اللجب .

والعباس ينادي بالمهاجرين والأنصار .

وفلول المنافقين والكفار مسرورة بهذه الهزيمة وتتمنى أبعد منها .

وأدرك شيبة بن عثمان أن فرصته قد تهيأت ، فهو لن يجد محمداً في حال تمكنه من قتله أفضل من هذه .

قال شيبة لنفسه : الآن أدرك ثأري من محمد ، الآن أقتل من قتل أبي وعمي ... إن نيران الحقد التي أشعلتها في قلبي أحداث أُحد لا يطفئها إلا قتل محمد ... ولكن أين محمد في هذه الجموع المتزاحمة ، أتراه لا زال صابراً ثابتاً بعد أن فرّ الجيش؟ربّما كان ذلك، بل هو المؤكد لأني أعلم أنه من الشجاعة بمكان لا يُدانى ، وإني سمعت أن أصحابه يتقون به إذا حمي الوطيس واحتدم الوغى...إني ألمحه هناك في عدد من أصحابه.. إنها فرصتي ، إن جميع من حضر هذه المعركة مشغول بنفسه ، وهؤلاء الذين معه مشغولون بقتال هوازن المندفعة التي لا يوقفها شيء ، وحتى لو رآني أحدهم فإنه لن يشك في مقصدي فإني

خرجت معهم ولم أخرج عليهم، إنها فرصتي... إنها فرصتي... يا لثارات الوالد والعم، يا لثارات الدماء المراقة في أحد ...

وتقدم شيبة نحو الجهة التي فيها رسول الله وأصحابه، وعندما اقترب قال في نفسه: آتيه عن يمينه فأضربه.

ونظر فوجد العباس بن عبد المطلب يقاتل عن يمين رسول الله وعليه درع بيضاء كأنها فضة ينكشف عنها العجاج، فقال لنفسه: عمه ولن يخذله، وليست لي بالعباس من طاقة؛ فلآته عن شماله. ودار ليأتيه من ذلك الوجه، فإذا ابو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب يدافع عن شماله، فقال لنفسه: ابن عمه ولن يسلمه أبداً، ولا قدرة لي بقتاله.

ودار من خلف رسول الله، فلم يجد بينهما شيئاً يمنعه أو يصده، فتقدم منه، وسلّ سيفه ولم يبق إلا أن يساوره به سورة، فإذا بشواظ من نار قد وقع بينهما كأنه البرق، فأخذ ببصره، ففزع وخاف أن يحترق، فوضع يده على بصره وتراجع ...

وأحسّ به رسول الله - ﷺ - فالتفت إليه وقال: يا شيب ادن مني.

ودارت الأرض بشيبة، وامتلأ قلبه رعباً، وتقدم من رسول الله وقد طارت نفسه شعاعاً. وابتسم رسول الله -

عليه السلام — ووضع يده على صدر شيبة وقال : اللهم أذهب عنه الشيطان .

يقول شيبة : فغدا رسول الله من تلك الساعة أحب إليّ من سمعي وبصري ونفسي .

ثم قال له رسول الله : يا شيبة ، قاتل الكفار .

يقول شيبة : فتقدمت أمامه أضرب بالسيف ، الله أعلم أني أحب أن أقيه بنفسي ، ولو كان أبي حياً ولقيته تلك الساعة لأوقعت به .

وفاء مئة من المهاجرين والأنصار إلى رسول الله ، فقاتل بهم هوازن حتى هزمها ، وانتصرت الفئة القليلة المؤمنة ، وأثبت الإيمان أنه أقوى من كل قوي ، وإن حنيناً لدرس لمن يعي حكمة الدروس .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مكة منتصراً ، ودعا شيبة بن عثمان وعثمان بن طلحة وأعطاهم مفاتيح الكعبة وقال لهم : خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم ...

فولي الحجابة عثمان إلى أن مات .

ثم وليها بعده شيبة ، وتوارثها من بعده بنوه ، وبقيت في عقبه إلى يومنا هذا .

★ ★ ★

وعاش شيبة إلى أن أدرك الخلاف بين علي ومعاوية ، وكان هواه مع علي ...

وفي السنة التاسعة والثلاثين من هجرة رسول الله – صلوات الله عليه – أرسل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قثم بن العباس ليحج بالناس ، وأرسل معاوية من قبله يزيد بن شجرة لنفس الغرض وتنازعا ...

وسعى بينهما أبو سعيد الخدري وآخرون ، فاصطلحا على أن يقيم الحج بالناس ويصلي بهم شيبة بن عثمان .

وعاش – رضي الله عنه – إلى السنة التاسعة والخمسين من هجرة سيد المرسلين ، وعندما أدركته الوفاة أوصى لعبد الله بن الزبير .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ

الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة التوبة

المحاولة الثانية عشرة

محاولة المنافقين

وصلت أنباء عن عزم هرقل الروم ومن يواليه من متنصرة العرب ، على غزو المدينة ؛ فأعلن رسول الله - ﷺ - عن عزمه على الخروج إلى أرض الروم ، متبعاً خطته في مثل هذه المواقف : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، وطلب من المسلمين أن يستعدوا لهذه الغزوة .

ودبت الحركة في المدينة ، ونهض الموسرون من المسلمين بأمر تمويل الجيش ، وتتابع المجاهدون على الخروج إلى ثنيّه الوداع حيث المركز الذي عينه رسول الله - ﷺ - لتجمع الجيش ، وجاء الفقراء إلى رسول الله وأعينهم تفيض من الدمع لأنهم لا يجدون ما يجهزون به أنفسم ، وجاء آخرون من الأعراب والمنافقين ينتحلون الأعذار لكي يعفيهم الرسول من الخروج .

وكانت هناك حركة أخرى في صفوف المنافقين، فقد اجتمع رؤساء النفاق في بيت سويلم اليهودي في ناحية من المدينة ليتداولوا في أمر هذه الغزوة، وفي الدور الذي سيلعبونه لتخذيل المسلمين وتوهينهم.

قال سويلم: أيها السادة الذين سلبهم محمد سيادتهم، إنها فرصتكم للانتقام ولاستعادة ما فقدتم من قيادة وسيادة، فإن هذا الأمر الذي يواجهه محمد لا قبل له به، إن الروم الذين هزموا فارس أكبر الدول وأقواها لا تقوم لهم جماعة من العرب لا يدرون ما القتال وما النزال، وإذا كان قد غرّهم غلبهم أعراباً لا علم لهم بالحرب، وقبائل ضعيفة متفرقة، فإنهم سيواجهون غداً قوماً آخرين، إنهم سيلاقون الروم بجيوشهم الجرارة المنظمة، وهي جيوش خبيرة بفنون الحرب عالمة بأساليب القتال، فأنى لهم النصر إذا كان اللقاء؟!

قال واحد من الحاضرين: إذا كان الأمر كذلك فإنا نكون قد كُفينا محمداً وأصحابه، وما علينا إلا أن ننتظر أخبار هزيمتهم والقضاء عليهم، وعندئذٍ نثب على المدينة، ونستعيد ما كان لنا فيها من سيادة، ونعيد الأيام الخوالي حيث كان لنا معكم معشر اليهود أيام صالحات! ، ولك علينا يا سويلم أن نعيد اليهود إلى الحصون والزروع، ونهبهم هذه الحصون والزروع هبة أبدية مطلقة ...

قـال سويلم : بوركت يا أخانا ، ولكن الانتظار من غير المشاركة في هذا الأمر لا يكفي ، فلا بدّ لنا أن نضع خطة نساعد فيها إخواننا من الروم والعرب المتنصرة على التغلب على محمد وصحبه ، ويجب أن نضع في حسابنا كل الاحتمالات ، إذ ربما يشغل الروم عن قتال محمد شاغل فلا يرسلون له جيشاً ، أو ربما أرسلوا له جيشاً صغيراً فيغلبه محمد ، فإذا حدث ذلك كانت نهايتكم ، وكان ذلك أيضاً إعلاناً بانقطاع أملنا – معشر اليهود – في العودة إلى المدينة .

قالوا : ما العمل إذن يا سويلم ؟ إنك لذو دهاء ومكر وخداع ، ولا بد أنك فكرت في خطة . تنفعنا وتنفعكم في هذا الأمر الذي حزبنا ، فهات خطتك فإننا لك سامعين ولخطتك منفذين .

قال : عندي خطة تنفذ على خطوات ، فإذا نفذتموها رجوت لكم الفوز والنجاح .

قالوا : وما هي هذه الخطة ذات الخطوات ؟

قال : يخرج عبد الله بن أبي فيمن يستطيع أن يجمعه حوله من رجاله وينزل بهم مع جيش محمد أو قريباً منهم في ثنية الوداع حتى إذا أمر محمد جيشه بالانطلاق إلى الشام انسحب ابن أبي بمن معه وعاد إلى المدينة فإذا فعل ذلك فتّ في عضد

أصحـــاب محمد وأدخل عليهـــم الخوف وانتابهم الحزن والأسى .

وأبدى الحاضرون إعجابهم بهذه الخطوة، وساد في الحاضرين جو من الارتياح والأمل ، ونظروا إلى سويلم كأنهم يستحثونه على ذكر الخطوة التالية .

وارتفع صوت سويلم فأنصت الجميع ، والخطوة الثانية أن يقوم جماعة منا ببناء مسجد .

وسرت بسرعة همهمات الاعتراض : نحن نبني مسجـــداً ؟ أنساهم في بناء ما يغيظنا ؟ ما الذي دهاك يا سويلم ؟لا شك أنك تهزل ، أهذا أوان الهزل ؟

ورفع سويلم يده يهدىء الحاضرين ويقول : رويدكم أيهـــا القوم ، إنني أجد ولا أهزل ، سوف نبني مسجداً لنا ، أتعلمون ما معنى لنا ، إنه سيكون مركزاً لاجتماعاتنا ووكراً لمؤامراتنا على المسلمين ، وهو بعد هذا مدعاة للتفريق بين أصحاب محمد ، إذ سنغري قسماً منهم ليصلي معنا ، وكلما سمع منا شيئـاً في حق محمد ودينه سوف يداخله شيء من الشك ، يبدأ بسيطاً ثم يتعاظم ، فيدخل الرجل في رأينا دون أن يدري ... ثم إننا لا نثير الريبـة أو الشبهة إذا كانت اجتماعاتنـــا ولقاءاتنا في مسجد .

قالوا : ومـا علاقة هذا المسجد بما نحن فيه من حرب محمد مع الروم .

قال : تعلمون أن محمداً سيخبر بأمرنا وأنا مـا أردنا ببنائه خيراً، فإذا شاع هذا الخبر في الجيش المسافر للحرب شغله ذلك وأهمه ، فإن أكبر مـا يشغل التارك لبلده أن يُخلف فيـه بسوء ...

قال أحد الحاضرين : حقاً إنك يا سويلم لداهية ، ولكني أرى في حديثك كأنك تؤمن بأن محمداً نبيّ ، فلماذا إذن هذا العداء ، فقد كان الأولى بك أن تؤمن به .

وانتفض سويلم كأن ألف أفعى لدغته ، وقال والغضب يملأ نفسه : أنا أؤمن بمحمد ؟ أنا أؤمن بمن قتل الأبناء والآباء ؟ أنا أؤمن بمن صارت إليه النبوة بعد أن كانت في بني إسرائيل ... إننا – معشر اليهود – لا نؤمن إلا بنبي من بني إسرائيل .

وهدأ القوم من غضب سويلم ، وأعلنوا له أنهم على رأيه ، وأنهم معه في خطة سيره ، فليمض في رسم الخطة ، وليتحدث عن الخطوة الثالثة !

قال سويلم : الخطوة الثالثة التي سوف ننفذها أن نترك نفراً من أنصارنا يذهبون مع جيش محمد ، والمهمة المنوطة بهـم هي اهتبال الفرص لتخذيل الناس عن محمد ثم إشاعة الأخبار المثبطة

في الجيش ، ثم تحوير الأحاديث وتحريفها بما يخدم خطتنا ...

قال واحد من الحاضرين : ما أحسن ما خططت أيها اليهودي ، وما أروع ما دبّرت ، ولكن قد لا يؤدي كل هذا إلى نكوص الناس عن محمد وعن القتال معه ، فأنت تعلم مدى تعلق أصحابه به ، وقد يعود محمد من غزوته هذه منتصراً ، فإذا كان ذلك فإنها تكون نهايتنا .

قال سويلم : لقد احتطت لهذا الأمر ، ووضعت لهذه الثغرة ما يسدها ..

قال : كيف ؟

قال سويلم : نؤلف فرقة من رجالنا تكون مهمتها إذا عاد محمد منتصراً أن يقتلوه في طريق عودته ، وبقتله ينهار ما بناه من دين ودولة ، وينتهي أمر الإسلام والمسلمين .

وارتاح الحاضرون لما خطط لهم سويلم ، ووعدوا بالقيام على تنفيذه ، وتواعدوا على ذلك .

وقبل أن ينفضّ جمعهم علم بهم رسول الله – ﷺ – فأرسل إليهم طلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – في نفر من الصحابة وأمرهم أن يحرقوا عليهم بيت سويلم ، فداهموهم فيه ، فأضرموا فيه النار ، ولكن المنافقين فروا ...

• ❋ ••

أخذ المسلمون يتدفقون على ثنية الوداع استعداداً لجهاد الروم .

ونشط المنافقون في المدينة يحاولون تخذيل المسلمين وفل عزيمتهم :

قال قائل منهم يخاطب المسلمين المتطوعين للجهاد: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟

والله لكأنّكم غداً مقرنين في الحبال !

وقال آخرون وهم يحاولون أن يظهروا بمظهر المشفق النصيح إننا في وقت حرّ شديد ، فلا تنفروا في الحر ، وانتظروا وقتاً يكون أقل حرّاً .

وقال آخرون عندما علموا أن رسول الله – ﷺ – استخلف علياً على أهله : ما خلّفه إلا استثقالاً له .

وما كان لمثل هذه الأقوال أن تثني المسلمين عن الجهاد الذي يسري في أجسامهم مسرى الدماء ، والذي أشربوا حبه واستعذبوا ورده ...

وتجمع في ثنية الوادع ثلاثون ألفاً من المسلمين ، وتجمع عدد كبير من المنافقين مع عبد الله بن أبي ، ونزلوا بالقرب من المسلمين ، يوهمونهم بأنهم معهم .

وأمر رسول الله – ﷺ – الناس بالانطلاق إلى الشام ،

فانسحب عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين واتجهوا نحو المدينة .

ونظر واحد من المسلمين نحو إخوانه المتجهين نحو الشام استجابة لأمر رسولهم ، ثم نظر إلى جماعة المنافقين وهم ناكصون على أعقابهم مرتدون نحو المدينة عاصون لأمر رسول الله ، فقال أبعدكم الله معشر المنافقين وأغنانا عنكم ، وما كان المنافقون ليمينوا المسلمين على أمر أبداً .

وتابع جيش الإسلام زحفه نحو الشام ، وتابع من اندس في صفوفه من المنافقين إرجافهم ...

ففي الطريق فقد المسلمون الماء ، فطلبوا من رسول الله - ﷺ - أن يدعو لهم ، فدعا ، فجاءت سحابة فأمطرتهم حتى رووا وتزودا .

وبان البشر على وجوه المسلمين لما أكرمهم به الله بدعاء رسول الله ، فقال واحد من المنافقين : مم تعجبون ، إنها سحابة مارّة !

وضلت ناقة لرسول الله - صلوات الله عليه - ، فأرسل من يبحث عنها ، فقال أحد المنافقين : إنّ محمداً يخبركم الخبر من السماء ولا يدري أين ناقته !

وجاء الوحي إلى رسول الله فأخبره بما تحدث به المنافق ،

وأعلمه بموضع الناقة ، فقال عليه السلام : إن رجلا قال : إن محمداً يخبركم بخبر السماء ولا يدري أين ناقته ، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله عزّ وجل ، وهي في الوادي في شعب كذا قد حسبتها شجرة بزمامها .

فانطلقوا إلى ذلك المكان ، فوجدوها كما وصف رسول الله .

لقد أراد المنافقون أن يبعثوا الشك في نفوس المسلمين برسول الله بمثل هذه الأقوال ، فرد الله كيدهم إلى نحورهم ، فزاد هذا الحادث من ثقة المسلمين برسولهم الأمين .

* * *

ووصل رسول الله – ﷺ – إلى تبوك ، فلم يجد لهرقل جمعاً ولا لأوليائه من العرب جيشاً ، فأقام أكثر من عشرة أيام حقق فيها من النصر ما لا تحققه معارك السيوف والرماح .

فقد أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على الجزية

وجاءه أهل أذرح وصالحوه على الجزية .

وجاءه أهل جرباء وصالحوه على الجزية .

وجاءه أهل مقنا وصالحوه على الجزية .

وأرسل خالدَ بن الوليد إلى أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأخذه ، وجـاء به إلى رسول الله ، فصالحه على الجزية .

وحقق رسول الله ما أراده من هذه الغزوة ، فأمر جيشه بالعودة إلى المدينة .

وانطلق الجيش يملؤه السرور والفخر بما أنعم الله عليه من توفيق ، عائداً إلى المدينة ، وفي صفوفه نفر من المنافقين أغاظهم ما رأوه من تدفق الناس على مصالحة رسول الله وإعطاء الجزية له ، وزاد في غيظهم ما رأوه من سرور المسلمين وغبطتهم بمـا أنجز الله لهـم ، فقرروا أن ينفذوا المرحلة الأخيرة من خطة سويلم فأخذوا في مراقبة الجيش لعلهم يجدون الفرصة السانحة ، فينالوا من رسول الله ...

وقدم الجيش على منطقة جبلية ، فنادى منادي رسول الله في الجيش أن اسلكوا بطن الوادي ، وأخذ رسول الله معه : عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وصعد عقبة الجبل[1] ، فرأى المنافقون أن هذه فرصتهم ، فأسرعوا بالانفصال عن الجيش ، واتجهوا نحو الجبل ليصعدوه خلف رسول الله ...

---

(١) العقبة : المرقى الصعب من الجبل .

واستعد المنافقون، فتلثموا حتى لا يعرفهم أحد. وانتظروا حتى أرخى الليل سدوله، وانطلقوا يصعدون الجبل ليلحقوا برسول الله، واتفقوا على أن يزحموه حتى يلقوه من أعلى العقبة، ورأوا أنهم إذا نجحوا في ذلك قتلوا رسول الله وأتموا مهمتهم بنجاح.

وأوحى الله إلى رسوله بما يدبّر المنافقون ...

ووصلت إلى مسامع رسول الله - ﷺ - جلبة خيل المنافقين، فتغير وجهه غضباً، وأمر حذيفة بن اليمان أن يتصدى لهم ويردّهم ...

وتقدم حذيفة نحوهم ولوح بمحجن في يده بوجوه خيلهم، فلما رأوا ذلك، عرفوا أن أمرهم قد كُشف، فدب الرعب في قلوبهم، وارتدوا على أعقابهم، وانقلبوا خاسرين.

وعاد حذيفة إلى رسول الله - ﷺ -، فأمره وعماراً أن يسرعا، فأسرعا حتى قطعوا العقبة، ووقفوا ينتظرون الجيش.

قال رسول الله - ﷺ - لحذيفة: هل عرفت هؤلاء القوم؟

قال حذيفه: لا يا رسول الله، قد كانوا ملثمين.

قال – عليه السلام – : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟

قال حذيفة وعمار : لا .

قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها .

قالا : يا رسول الله ، ألا أرسلت إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم .

قال : لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقومه حتى إذا أظهره الله أقبل عليهم يقتلهم .

واستمر الجيش في رحلة العودة إلى المدينة ، وعندما اقتربوا منها نادى رسول الله – ﷺ – جماعة من أصحابه وأمرهم بالانطلاق إلى المدينة وتحريق المسجد الذي بناه المنافقون وهدمه على من فيه ، وتلا قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] .

فانطلق الصحابة إلى مسجد الضرار فحرقوه وهدموه .

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة التوبة .

وأسقط في يد المنافقين ، وسقط شأنهم ...

★ ★ ★

كانت غزوة تبوك غزوة مباركة ، فقد أمّن الرسول – صلوات الله عليه – بهذه الغزوة حدود الدولة الإسلامية من ناحية الروم ، وجرّأ المسلمين على الروم وكسر هيبتهم في نفوسهم ، وخضع له عدد من الولاة الذين كانوا يدينون بالطاعة للروم ، وأدوا له الجزية عن يد وهم صاغرون .

وهي مباركة أيضاً لأنها حسمت الصراع مع المنافقين ، فقد رمى المنافقون في هذه الغزوة كل ما تبقى في جعبتهم من سهام ، فطاشت جميعها ، وانتهى أمرهم إلى الخذلان والانكسار .

بهذه النتائج الباهرة عاد رسول الله – ﷺ – من تبوك ، فكانت فرحة المسلمين بعودته غامرة ، فاستقبله أهل المدينة ، رجالهم ونساؤهم وأطفالهم عند ثنية الوداع وهم ينشدون .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

بسم الله الرحمن الرحيم

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ

الآية ١١ من سورة الرعد

المحاولة الثالثة عشرة

محاولة عامر بن الطفيل واربد بن قيس

كانت جزيرة العرب قبل الإسلام في فوضى عارمة ، فالقبائل العربية متنافسة متناحرة ، لا تنتهي من خصام إلا لتجدد خصاماً آخر ، ولا تخرج من حرب إلا لتدخل في حرب أخرى . ولقد كان من سوء رأيهم وخطل تفكيرهم وبعدهم عن الصواب أن امتدت الحروب بينهم سنوات حتى وصلت في بعضها إلى أربعين سنة ، لا تجد عاقلاً يوقفها ولا مصلحاً يتلافى وقوع غيرها ، وقد استشرت هذه الحروب حتى غدت عادة مألوفة إذا لم تنشب بسبب اختلقوا لها أسباباً ، بل إن القبيلة من هذه القبائل إذا لم تجد عدواً تقاتله أو معتدياً تحاربه افتعلت حرباً مع أقرب الناس إليها وألصقهم بها حتى قال شاعرهم .

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ونتيجة لهذه الأجواء الحربية ظهر في الجزيرة العربية أنواع من الرجال زادوا في هذه الفوضى وعاشوا فيها ولها ؛ فقد

ظهر في الجزيرة الصعاليك الذين ألجأهم الفقر والعوز إلى قطع الطريق أو شن الغارات على الآمنين ، وبخاصة أولئك الأثرياء من قبائلهم الذين بخلوا عليهم بما عندهم ، وظهر أيضاً الرجال الذؤبان الذين خلطوا بين الفروسية النبيلة والتسلط الذميم والاعتداء الأثيم ، وهم في الوقت نفسه لم يعلنوا خروجهم على قبائلهم كما فعل الصعاليك وإن كانوا لا يتورعون عن الإساءة إلى أفرادها والاستعلاء على رجالها ، وظهر بالإضافة إلى الصعاليك والذؤبان فرسان لمعوا في ميادين القتال إلى جانب قبائلهم ، فأسلمت لهم قبائلهم الأعنة ، فطمعوا لأكثر من ذلك فنافسوا على السيادة والرئاسة فنالوها ، وطمعوا أن يمدوا سيادتهم ورئاستهم إلى قبائل أخرى .

ولم تقتصر هذه الفوضى في الجزيرة على أمور الحرب ، بل تعدتها إلى أمور الدين ، فغرقت الجزيرة في فوضى دينية لا مثيل لها ، فالوثنية التي كانت تدين بها الغالبية العظمى من سكان الجزيرة لم تكن وثنية واحدة ، فقد كان لكل قبيلة من القبائل وثنها الذي تعبده وتقدسه وتدافع عنه ، بل كان لكل سيد في القبيلة صنمه الذي يرعاه ويتوجه إليه بالدعاء وطلب العون والشفاء .... ، وزاد هذه الفوضى ما تسرب إلى الجزيرة من الأديان المحرفة والمعتقدات المنحرفة ، فقد ظهر فيها أتباع لليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية .

وأذهلت هذه الفوضى رجالاً ذوي عقول راجحة وتفكير متزن ، فراحوا يبحثون عن مخرج لما يعانيه الناس ، ويلتمسون لأنفسهم منقذاً لما يعانونه من ضيق بهذه المعتقدات والأديان ، واشتهر من بين هؤلاء رجال عرفت لهم قبائلهم فضلهم وحسن تفكيرهم فمنحتهم احترامها وربما استشارتهم في بعض شئونها ...

وعندما تأذن الله بإنهاء هذه الفوضى وأرسل رسوله بالهدى وقفت كل هذه الأصناف من الرجال في وجه الدعوة ، وأعلنت عداءها لرسول الرحمة المهداة .

وكان أولى الناس باتباع الهدى هؤلاء الرجال الذين أجهدوا أنفسهم بالبحث عن الحقيقة ، ولكنهم كانوا قد أشربوا حب أنفسهم وظنوا أنهم يجب أن يُتَّبعوا لا أن يكونوا من التابعين، فانحازوا إلى جانب الباطل ووقفوا معه ، وعادوا الحق وهم يعرفونه .

قال أبو سفيان بن حرب لأمية بن أبي الصلت ، يا أمية ، قد خرج النبي الذي كنت تنعته .

قال أمية : أما إنه حق ، فاتبعه يا أبا سفيان .

قال أبو سفيان : وما يمنعك من اتباعه ؟!

قال أمية : ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف ! إني

كنت أحدثهن أني هو ، ثم يرينني تابعـــاً لغلام من بني عبد مناف ؟!

وأُميَّة هذا نوع من الرجال الذين أفرزهم مجتمع الفوضى في جزيرة العرب .

وإذا كان أمية هكذا ، وهو الباحث عن الحقيقة كما زعم ، فمـــاذا سيكون موقف الصعاليك والذؤبان والفرسان الذين لا يفكرون إلا بأنفسهم ولا يستعملون إلا أسلحتهم ...

★ ★ ★

كان عامر بن الطفيل من هؤلاء الرجال الذين يحيون حياة الجاهلية بكل ما نشرته في ربوع الجزيرة من فوضى .

كان رجلاً شجاعاً وفارساً بطلاً وسيداً مطاعـــاً ، تعتز به قبيلته بنو عامر وتعده من مفاخرها ، وتعتمد عليه في غزواتها إن غزت وفي دفاعها عن حياضها إذا ُغزيت .

وكان أيضاً رجلاً اجتمعت فيه رذائل الجاهلية ، فهو يقبل على الخمرة ويعاقرها ويديم معاقرتها ، وهو مولع بالميسر لا يتركه لشيء أبداً ، وهو ساخر من العهود ، لا يحترمها ولا ينفذها ، وهو لا يحترم أقرانـــه ولا يوقر من هو أكبر منـــه ، فتراه دائم الجنـــاية على أقرانه ، مكثر الزراية على الأشيـــاخ من قومه .

سمع عامر بدعوة الإسلام ، وعرف ما تدعو إليه من الفضائل ، فنفر منها طبعه وعادتها نفسه ، وحمل لها في قلبه العداء والحقد ، واستمر على سيرته ، لا يحفل بما يجري حوله ، ولا يهتم إلا بما يجلب النفع لنفسه ...

وارتحل عمه أبو براء عامر بن مالك ، الذي تلقبه قبيلته « ملاعب الأسنة » لبطولته وفروسيته ، إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وعرف عامر بن الطفيل بذلك فما فكر أن يحمل نفسه على الرحيل مع عمه للاستماع لما يدعو إليه الرسول الكريم ، وعندما عاد عمه لم يكلف نفسه مؤونة السؤال عما وجده عمه في مدينة الإسلام .

ورأى ملاعب الأسنة أن محمداً يدعو لخير ، فأحب أن يصل هذا الخير إلى قبائل العرب ، فطلب من رسول الله أن يرسل عدداً من أصحابه لنشر دعوته ، وأعلن أنه جار لهؤلاء الدعاة .

وما كان من عامر بن الطفيل عندما مرّ به هؤلاء الدعاة إلا أن وثب عليهم مخفراً ذمة عمه أبي براء وأجرى فيهم السيف وأقام لهم مذبحة رهيبة في بئر معونة .

وأغاظ المسلمين فعل عامر ، وتمنوا لو أنهم يظفرون به ، إذن لأذاقوه وبال غدره وأروه مغبة فعله ؛ ولكن عامراً أفلت وقدر الله له نهاية أخرى ..

***

وسارت دعوة الإسلام من نصر إلى نصر ، ورأت قبائل العرب أن نجم الإسلام في سطوع ، وعرفت أن نجم الوثنية إلى أفول ، فأسرعت ترسل الوفد تلو الوفد ليقابل الرسول ويبايعه على الإسلام .

وكان لا بد لبني عامر أن يفدوا على المدينة ويقابلوا رسول الله ، ويدخلوا فيما دخلت فيه سائر قبائل العرب .

وما كان لبني عامر أن يرسلوا وفداً ليس فيه عامر بن الطفيل ، وهم يعلمون مدى انحراف عامر عن دعوة الحق ، ويعرفون ما جنت يداه بحق الإسلام في بئر معونة ، فأرسلوا وراءه وقالوا له : ويحك يا عامر إن الناس قد أسلموا ، أفما آن لك أن تسلم ؟!

لم يكن عامر المغتر بنفسه والمعتد بشجاعته قد أدرك معنى إشارة قومه عندما قالوا له : إن الناس قد أسلموا ، ذلك لأن غروره هيأ له أنه جدير بأن يكون متبوعاً لا تابعاً ، فكيف يقرّ للإسلام بسلطان على نفسه وهو الذي لم يقرّ لأحد بسلطان أبداً ...

قال يجيب قومه وقد أخذته سورة من الغضب : والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟

قالوا : ألا تريد أن تكون في وفدنا الذاهب إلى المدينة ؟

قال : لا أريد أن أقابل هذا الفتى القرشي .

ثم ما لبث أن قال : بل سآتي معكم ، سآتي لأرى ماذا سيكون من أمري وأمر محمد .

وجمع عامر وفد قبيلته ، وسار بهم إلى مدينة الرسول ، وفي هذا الوفد من بني عامر من يرجو الخير ويود لو تطوى له الأرض حتى يلاقي محمداً ويسعد بالاستماع إليه ، وفيه من خرج حباً في مرافقة عامر الفارس الذي سار ذكره في الجزيرة فأغار فيها وأنجد ، وهؤلاء لأمر عامر تبع ولرأيه متابعون .

واقترب عامر من أربد بن قيس ، الفارس العامري المشهور والصديق المرافق لعامر ، فقال له : ألا تعينني يا أربد على ما أنتويه كما كنت تعينني في ساحات الوغى وميادين النزال ؟

قال أربد : أنت تعرف أنني لا أتخلى عنك أبداً ، فأنا عينك التي تبصر بها ويدك التي تضرب بها .

قال عامر : أرأيت هذا الرجل القرشي الذي أسلمت له قيادها العرب ، ألست أحق منه بالرئاسة والقيادة والسيادة ؟

قال أربد : أنت فارس العرب وأحق الناس بالرئاسة عليها .

قال عامر : إنني أرى أننا إذا قتلنا هذا الرجل القرشي لم يزد أهله على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب ، فإذا قتلناه دانت لنا القبائل كما كانت تدين له ، فإن الناس يدينون للقوي الغالب .

قال أربد : نعم ما رأيت ، فكيف نقتله ؟

قال عامر : إذا قدمنا عليه فإني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

* * *

وصل وفد بني عامر إلى المدينة ، ودخلوا على رسول الله - ﷺ - ، فتقدم منه عامر وقال : يا محمد ، قم معي أكلمك .

فقام معه رسول الله - عليه السلام - ووقفا إلى جدار ، فقال عامر : يا محمد ، ما تجعل لي إن أسلمت ؟

قال - عليه السلام - : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم .

ونظر عامر بطرف عينه إلى أربد، فرآه يتجه خلف النبي ، فتابع حديثه ليشغل الرسول عما يدبره أربد ، فقال : أتجعل لي الأمر بعدك ؟

قال رسول الله : ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل .

واسترق عامر النظر ، فرأى أربد قد أصبح خلف النبي ويده على مقبض سيفه يريد أن يستله ، فأسرع عامر فرد على رسول الله وقال : أنا الآن في أعنة خيل نجد ، اجعل لي الوبر ولك المدر .

قال رسول الله – ﷺ – : لا .

واستبطأ عامر أربد ، فنظر إليه فوجده ذاهلاً لا يحرك ساكناً ، والتفت إلى يده فوجدها جامدة على مقبض السيف ، فاحتدّ لذلك ، وعرف أن تدبيره قد فشل ، فقال لرسول الله بحدة وعصبية ظاهرة : والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً .

قال رسول الله بثقة وهدوء : الله يمنعك .

ونادى عامر في وفد قومه ، وخرج بهم من المدينة مغضباً .

والتفت رسول الله إلى عامر وهو منصرف ودعا عليه قائلاً : اللهم اكفني عامراً ، واهد قومه .

ولما أصبحوا خارج المدينة قال عامر لأربد: أين ما أمرتك به ؟ لِمَ لمْ تقتله ؟

قال أربد : والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

قال عامر: بل جبنت وخفت على نفسك أن يقتلك أصحابه، والله يا أربد ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسي منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً .

* * *

وسار ركب بني عامر في طريق العودة ، فشعر عامر بألم في حلقه ، ما لبث أن زاد حتى أصبح عامر لا يسيغ الطعام والشراب إلا بالجهد والمشقة والألم البالغ ، فمد يده إلى حلقه يتحسس موضع الألم ، فإذا بحلقه متضخم وفيه غدة كغدّة البعير ...

ومال به الركب إلى مضارب لبني سلول لعلهم يجدون لمرضه عندهم الدواء، وأرقدوه في خيمة لامرأة سلولية تمرضه، ولكن علاجها لم يزده إلا آلاماً إلى آلامه ، ولم يزد الغدة إلا تضخماً وانتفاخاً .

وضاقت نفس عامر بما تجده من آلام مبرحة ، وكبر عليه أن يموت غريباً على فراش امرأة بعد أن كان يمني نفسه بغارة يشنها على محمد فيقتله ويستلب الأمر منه ويصبح زعيم الجزيرة وسيدها .

واختلط عليه الحلم بالألم ، فصاح في قومه ، فهرعوا إليه ، فقـــال لهم : يا بني عامر أغدة كغدة الجمـــل وموت في بيت سلولية !؟

قال له أحدهم : اصبر يا عامر فعما قليل تشفى .

قال والأسى يملأ نفسه : أي شفاء وهذه الغـــدة تحرمني الطعـــام والشراب وتكاد تمنعني الحديث ، هيـــا احملوني على فرسي .

قالوا له : كيف تركب الفرس وأنت كما ترى ؟

قـــال : احملوني على فرسي ، فإني لا أريد أن أموت على فراشي ، ألست فارس بني عامر ؟ ألست فارس نجد ؟ ألست فارس من بالجزيرة جميعاً ؟

وأسرعوا إليه فحملوه ووضعوه فوق فرسه .

قال بصوت متعب مجهد : ناولوني رمحي .

فتناول رمحه ، وأخذ يصول بفرسه ويجول ، وراح يضرب برمحه الهواء كأنه في معركة .

ووقف بنو سلول ينظرون إليه ويعجبون .

ووقف وفد بني عامر في ذهول وحزن .

واستمر عامر في محاربـــة الهواء إلى أن سقط عن فرسه ميتاً .



وعاد وفد بني عامر بأسوأ ما يعود به وافد قوم ...

وهرع الناس إلى أربد بن قيس يسألونه : مـــا وراءَك يا أربد ؟

قال : مات فارسكم عامر بن الطفيل .

قالوا : ليس عن عامر نسأل ، فقد عرفنا أنه مات .

قال : وعم تسألون ؟

قالوا نسألك عما ذهبت إلى المدينة من أجله، كيف وجدت هذا الرجل القرشي ؟ وما رأيك بالذي يدعو إليه ؟

قال أربد: والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله .

ولبث أربد في قومه يومين ، ثم بدا له أن يخرج بجمل له ليبيعه في سوق من أسواق العرب ، فقد أحوج ولا بد له من مال يسد به حاجته .

وخرج على جمله ، وما إن سار بعض الطريق حتى انقضت عليه صاعقة من السماء فأحرقته ، وأحرقت جمله معه .

وهرع بنو عامر ليروا ما هذا الذي لمع في السماء وانقض على الأرض ، فلما أتوا موضعه وجدوا أربد وجمله محترقين .

قال رجل منهم : لست أدري ما الذي أصابكم يا بني عامر حتى تفقدوا أشجع فارسين في شهر واحد .

قال شيخ منهم : واروا فارسكم التراب ، وانصرفوا إلى مضاربكم ، فأمرٌ ما أنزل بفارسيكم الموت المفاجىء،فإن أدركتم ما يعني ذلك الموت رجوت لكم الفلاح .

قال رجل منهم : لست أدري ما الذي أصابكم يا بني عامر حتى تفقدوا أشجع فارسين في شهر واحد .

قال شيخ منهم : واروا فارسكم التراب ، وانصرفوا إلى مضاربكم ، فأمرٌ ما أنزل بفارسيكم الموت المفاجىء، فإن أدركتم ما يعني ذلك الموت رجوت لكم الفلاح .

الفهـــرس

صدر للمؤلف

١ - شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ٩ اجزاء .

٢ - أناشيد الدعوة الإسلامية جزءان ، والكتابان بالاشتراك مع الاستاذ حسني أدهم جرار .

٣ - فدائيون من عصر الرسول .

٤ - والله يعصمك من الناس (عرض تاريخي أدبي لمحاولات اغتيال الرسول ﷺ) .

٥ - أبو سفيان بن حرب ، من الجاهلية إلى الإسلام .

٦ - شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية .

تحت الإعداد

١ - السيرة النبوية من خلال الشعر الإسلامي في عصر الرسول .

٢ - نقائض الشعر في عصر الرسول .

٣ - دراسات في الشعر الإسلامي المعاصر .